مُتنزَّهُ الغائبين

قصص قصيرة

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

قصص قصيرة

مُتنزَّهُ الغائبين

أسم المؤلف: ميثم الخزرجي

الطبعة الثانية

–

التدقيق اللغوي: دار الفراعنة

التجهيزات الفنية والطباعة:

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

- رقم الإيداع: 4214 / 2025م
- الترقيم الدولي: 9 – 32 – 8883 – 977 – 978

- الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الدار، بل تعبر عن رأي المؤلف في المقام الأول.
- حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة، للناشر، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا، أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف ومن الناشر.

ميثم الخزرجي

مُتنزَّهُ الغائبين

قصص قصيرة

٢٠٢٥

الإهداء

إلى إنسان هذا العالم وتداعيات اغترابه

الدائرةَ القَصِيةَ

مــن الآن فصــاعداً، ســأعدِلُ عــن نظرتــي للمحــيط بموجوداتــه كلهــا، وفــي نيتــي يقــينٌ لا يدحضــه الشــك، بوجود عين ترقبنا، مدّخرة حقيقة أيامنا الفائتة.

على نحـو متصـل، أخـرج صـباحاً مـن شـقتي الأرضـية المطلــة علــى ســاحل بحــر المــانجن، لأنحــدر بصــورة متعرجــة، قاطعــة مســافة لا بــأس بهــا، مســتقلة ســيارتي الشخصـية لأصـل مكـان عملـي بمشـفى هـيلفن، المشـفى المعنيــة بمعالجــة أمــراض الانفصــام، إذ أعمــل مرشــدة نفسية، وقد أمضيتُ ما يقارب الثمانِ عشرة سنة فيها، لـم أفكـر بـالزواج بعـد وفـاة خطيبـي إيـدن بحـادث سـير فـي المدينة القديمة، متصالحة والحياة في شقة واحدة بالعيش مع كلبي المـدلل برانج، غالبـاً مـا يتملكنـي الضـجر، أبـان تلقـيّ رسـائلَ مـن القـس كـامنفتيوس، يخيّرنـي بالتحـاقي بالراهبــات اللــواتي نَــذَرْنَ أنفســهن للتبتّــل والتأمــل فــي الكنيسة، أو أتزوج من فيلين صاحب شركة برانس لإنتاج مستحضرات التجميل، غير أن ذلك الهاجس يشعرني بأن

ثمة وصايا مملاة عليّ من أحد، تقضي بأن أكون تابعة، لكني لا آبه بذلك أبداً، معتنية بيومي المحمّل بكثيرٍ من المتاعب التي تصادفني في عملي، أودع كلبي في حضانة الكلاب أثناء ذهابي إلى العمل، ومن ثم أصحبه معي حال الانتهاء، وهكذا دواليك. ربما أُبددُ ما فاض من الوقت في ممارسة الرياضة والاطلاع على ملفات المرضى، لأخرج بالمحصلة النهائية، بعد أن أرفع تقريراً إلى اللجنة المعنية بشأن هذا المريض من ذاك. واقعاً، كنتُ أقضي جُلَّ وقتي في الشقة، مستقرة بمتابعة أحدث الأفلام العالمية، وما يدور من الأحداث السياسية التي تستدعي التوقف عندها، ربما لم أكن معنية بالأخير غير أني استحضر الكثير من التفاصيل، علّها تملأ يومي وتشغله، لتثقله بما يدور في هذا الكون الضبابي. أغلب الظن أن عالمي مستتر ومتوارٍ هذا ما أدعيه بالطبع، وأحاول جاهدة أن أكون من خلاله، لكني أجد أن هناك من يمعن النظر في حياتي الخاصة، لذا كنت فقيرة التواصل بالمناسبات الاجتماعية، بل حتى المراسيم الخاصة بالكاتدرائية، لشعور مني بأن أغلبها تخصّ العوائل الفارهة، ولا يجدى منها غير التدخل بأحلام الآخرين، وأمورهم الشخصية، وما يُعنى بالمال، وغير

ذلك، معللة أن الإنسان خُلق بمفردهِ، ويموت بمفردهِ أيضاً، وما يتعلق بالحياة من صح أو خطأ يتحمل وزره هو، ولا شأن للآخر به، لكني وحال استكانة هذه الأفكار في داخلي أنظر إلى برانج وأبتسم، لأشرع قائلةً:

- لولا وجودك معي أيّها المشاكس لمُتُّ، فلا أكترث بمن حولي كثيراً، مأخوذة بعملي، مطلعة على ملفات مرضاي بصورة نهمة، أقفُ بحرص حيال الذي يثير دهشتي، أو يسبب لي أرقاً، وأبدي عناية فائقة بهذا الخصوص، ليصل بي الحال بأن أتقصى عن جذر المريض؛ فأنخرط بالبحث والتنقيب، معتبرة ذلك من ضمن مشغلي الذي يضيء وجودي ويغنيه بالسعادة والثبات، أجلس معهم وأحاورهم، أمعن النظر في تصرفاتهم والكثير من هلوساتهم، أدوّن تفاصيلهم الدقيقة وما أجده جوهرياً في محتواه، لأخرج بمحصلة نهائية، وفقاً للحالة التي تعرض أمامي، مدركة أنّي أتحرى عن أحوال أناسٍ ليس بمقدورهم إعادة تنشيط وتقويم رؤاهم بالصورة التي تهيئهم بأن يكونوا ذوي صلة بالذي عناهم، بل من ضمن اقتراحه وصوابه، فما بين استجابتهم للأسئلة التي أطرحها، أراهم ينسحبون عن الحديث بصورة مباغتة حال وصولهم للنقطة الفاصلة التي تفضي

لتغييبهم وجعلهم بهذا المخاض، فمنهم من يبادلني بجملٍ خارجةٍ عن السياق، ومنهم من يصرخ أو يبكي أو يتفاعل معي معلناً الصمت، لأتأكد من وصولي إلى الغاية المعنية في إضاءة الجنبة التي تقمصتهم وصيرتهم بهذا الحال، فمن بعد أدراج وتنظيم أسمائهم في كراس مذيل بنمط حالتهم الصحية ومدى تقبّلهم للعلاج، أسارع بفهرستها في رفوف ليستقر بي الحال مع مرضى آخرين.

من النادر أن تلزمني حالة مرضية معينة، وأن كانت تتخللها مآزق تجبرني على استدعاء همتي للمطاولة، وبحسب السعة المقدّرة لاحتوائها ومدى تفاعل الطرف الآخر معي، إلا إنّي أغادر مضمونها لأبكّر بيوم جديد ومرضى مختلفين، فقد اعتادت جدية عملي واستنطاق مرضاي بصورة دائمة على تفهمي بأن أتعامل مع بشر مزدوجي الشخصية، لا يستطيعون السيطرة على منظومتهم الذهنية، قد أتعايش مع حالات لها أثرها البالغ لأستقرئ بوساطتها قوة الصدمة التي تعرضوا لها، لذا بتُّ أتساءل في أحايين كثيرة عن مبلغ الصرع الذي انتزع منهم ثباتهم، وجعل مخيلتهم تتسع لمآلات افتراضية، أتطلع مستفسرة عن لوعتها و تفاوت محنتها أوعن نسبة التحمل الخاص بالمعني، ونوع الفجيعة التي تقذفه لهذا البؤس،

أدور عند حفنة من الأسئلة التي تسافر معي حال انتهاء عملي لتضيع في زحام المدينة المكتظة، فأقتص من الوقت بالتسلية مع برانج، متمرغًا بين أفخاذي وأخلدُ بعدها للنوم.

لطالما كنت أتأمل ثنائية العلاقة بين الإنسان والحيوان حال استراحة برانج بين أفخاذي، مستشعرة الحميمية التي تؤهلني بالمجمل بأن أستكفي من الليل وهدأته لأصارع الوحدة، فأخالط ما يشي لأيّة امرأة لها جموحها الناشئ، مستخفة ببعض الأفكار المتوثبة التي أرغمت النساء على أن تقترن بالرجل، غير أنّي سرعان ما تتراءى صورة إيدن في حجرتي، وكأنه يؤنب نواياي الآنية، أو يعيد ترميم متبنياتي المزمعة، أغادر فرشتي بالحال لأسارع بمحو الذنب الذي اقترفته، هامة بفتح باب "الكوميديو"، مكترثة بمعاينة الهدايا التي أحتفظ بهنَّ من قبله، أقلّبها على مهل الواحدة تلو الأخرى، لعلّي أصغي لشيء خفي ألزم بي، ولا أستطيع الفكاك منه، بل لا أرغب مغادرته، ليوقد حضوري كلبي الذي يدور حولي بروية وكأنه يسعى لمواساتي، لأنسجم وهذا الحال، مدركة أن ثمة هاجساً يلوِّح للإنسان من بعيد، ليجره عن واقعه فيجعله في مخاض قسري خارجاً عن أوانه، أنظر إلى برانج وأبتسم

ابتسامة آسرة، مبادرة بجملتي المعهودة "لولاك لكنت معهم"، مشيرة إلى رزم الأضابير التابعة لمرضاي، مهتمة بمعاينتها ومراجعتها بأناة ودقة.

اعتدت على مناقشة المرضى بجلسات منتظمة تحدد من قبلي بعد أن أسرف بالاطلاع على سيَرهم الشخصية، لكني وحال دخولي للمشفى، استقر نظري على أحداهن، والتي كانت تجلس بمفردها في باحة استجمام المرضى، تنظر إلى السماء نظرة مترقبة؛ وكأنها على موعد مع شيء هام، كانت ملامحها الماثلة تنذر بشيء غريب، أو لعلّها تقارب ما يدور من تداعيات المكان وطبيعة المرض، تمعنتُ بمن حولها بصورة جيدة، تماديتُ بالهمهمات علّها تلتفت، أو تسترق نظرة نحوي لكن من دون فائدة، استدرتُ إلى ويتش الموظف -الذي يعدّهم للنزهة- مستفسرة عن أحوال هذه المريضة:

- إنّها السيدة ويكهام، وصلت قبل يومين إلى المشفى يا آنسة هيلي.

- وما هو رقمها؟

- ٣٤٥.

انسحبت خطاي نحو الأرشيف للاطلاع على حالتها، فلم أجد ما يعرّفني بها، تخطيتُ الممر المؤدي إلى

حجرة الدكتور المعني بفحص وبتدوين حالة المريض العضوية بعدما يعدها للعلاج النفسي، لأجد الملف على مكتبه مؤشراً عليها بخطٍ أحمر: "الأرشيف" وبجوارهِ نسخة معنونة لي، ليبادرني بالحال:

- آنسة هيلي هذه نسختك.

أخذتها على أمل أن أطلع عليها حال عودتي إلى المنزل، لكني أمهلتُ غايتي، ورجعتُ إلى مكتبي بغية قراءة هذه الحالة، ليباغتني اتصال يُخبرني من حضانة الكلاب بأن برانج أصيب بحالة مرضية في معدته، مأخوذاً بالقيء والأعياء، وأن الطبيب المعني مجاز لمدة أسبوع لظرف معين. على عجالة استقلتُ سيارتي، وفي نيتي مراجعة المشفى البيطري الذي يتوسط المدينة، كانت الشوارع مزدحمة، حاولتُ العدول عن فكرتي والاتصال بالدكتور بيتر غير أن برانج كان تعباً للغاية، لا أعرف لماذا داهمتني فكرة واحدة مفادها: كيف لي أن أعيش الوحدة وأزاولها على أنّها مراس حياتي؟ هل أن الاعتياد على شيء معين وأن كان يجلب لك النكوص أمرٌ ضروريٌ؟ ما هو مبرر المفاجآت المثبطة؟ وهل لنا أن نحتجّ على غرضها؟ وكيف لنا أن نعد العدة لاستقبالها؟ هل نمرن أنفسنا على حمولة القادم بجميع تقلباته؟.

صرتُ أنظرُ إلى هذا العالم المكتظ بكل هوسه وصخبه من خلال برانج، وأبادله النظرات الحانية، وكأنه أناي الثانية، لم أعد أتلمس أي شيء سوى ما يمدّه لسانه باللعق لكفي المتخللة شعره السائب، كدت أنطلق بالصراخ، أيها العالم برانج ليس مجرد حيوان يسد مجمل الفراغ، إنّه وجودي الذي يضاء، وإصراري على طرد الجزع، كانت عيناه الذابلتان تشيران إلى خدر في قواه، لا أعرف كيف تمكنتُ من الوصول، طمأنني الطبيب، موصياً إياي بجلب مجموعة من الأدوية المضادة للالتهاب المعوي، عدتُ إلى المنزل وأنا في كامل الغبطة، كان جرس الكاتدرائية يدق ناقوسه ببهجة كبيرة، غير أني كنت أستفرد ببرانج وأدعك شعره المخملي، استرحتُ قليلاً، ثمة ظرف على الجانب الأيسر من فتحة الباب مكتوباً عليه: "دعوة لحضور عيد القيامة"، وقد بوّب ذلك من القس كامنفتيوس، لم أفتْ أن تفحصته قليلاً لأركنه جانباً، تمعنتُ ببرانج مستلقياً على السجاد، وقد خلت ملامحه من أيّة مبادرة نحوي، لربما بفعل الدواء، كنت مرهقة جداً غير أني لم أستطع النوم، جلتُ في المكان دونما حاجة لذلك، دخلتُ إلى المطبخ هامة بتحضير الشاي لكني أرجأت الأمر، صوَّبتُ عينيَّ من

خلال النافذة، لأرى عامة الناس يهمّون إلى الكنيسة، أجراسٌ تقرع، وخطواتٌ متسارعة، وتوافد تعاليم أنجيل يوحنا المقروءة من القس كامنفتيوس بصوته المتباطئ المحتشد بالتنبيه والتذكير وأمارة اليقين، ينذرهم بالوعد، خشوعاً واستجلاء للعواطف، يخالطه صوت تلاطم الأمواج، باعثاً طقساً درامياً، وكأنه يستثير مهج الأشياء وسكونها. تقدمتُ بضع خطوات مماثلة لأكون قبالة الحقيبة، كدتُ قد نسيتُ ملف السيدة ويكهام، أو انشغلت ببرانج، احتجتُ أن أطلع عليها بجد، عدلتُ عن جلستي، على الرغم من الغثيان الذي صاحبني، باشرت بالتصفح بها، غير أن طرقة الباب أصابتني بالسأم، كانت الراهبة سندريس أحدى أهم الراهبات في دير الأبلوش، بانت كعادتها بارتسامات خفيفة متوددة تستفهم مني عن الحضور، اعتذرت منها بصورة مهذبة على أمل أن أعاود القدَّاس بعد شفاء برانج، تقبلتْ ما قلته بكل حياء من دون أن تشعرني بالقصور، موكلة مفردات دافئة بالكاد تخرج من فمها لتصلني مستريحة معمدة بالأمل والصلاة، تأملتُ لحظتها السبب الذي جعل سيدة ناضجة مثل سندريس أن تمسك نفسها في هذا العالم اللاهوتي الذي يفرض عليها محددات معينة، لعل من أهمها عدم

الاقتران برجلٍ، والانزواء والزهد داخل هذه الأديرة والكنائس، هل هو الانخراط في العالم الآخر أو الابتعاد عن العالم الحالي؟ وهل هي متصلة فعلاً بعالمها الآخر أو تدّعي ذلك، ألا تحتاج إلى من يلعق يديها كبرانج؟ قلتها وابتسمت، عدتُ أدراجي، عندها سرحت حيال الغاية التي جعلتني أنفر عن عالم المجاملات. ركون عفوي غريزي من ضمن خاصتي السيكولوجية أو تردد مفتعل، لا علم لي بذلك. هل الآخر يسبب لي ريبة وخشية؟ أحسبه كذلك، إذن كيف أمتد إلى هذه الحياة لأعبر إلى هناك؟ ومن يكونوا رفقائي بالعمل؟ وما هي دلالة برانج؟ أليس آخر بذاته؟ استنشقت هواء القدَّاس، وكثير من مكاشفة القس كامنفتيوس باستذكار تعاليم الإنجيل، ممرنة بدني وناشرة كلتا ذراعيَّ باتجاهين مختلفين "أخر من نوع أخر".

شارفت الساعة على الثانية بعد منتصف الليل، تسللتُ من مكاني من غير أن أعي أن برانج يتهادى ورائي، عازماً أن يحضر لي مسودة المريض، فقد أعتاد على أن يهتم بالتفاصيل الخاصة بي، وإن كانت عابرة، يفتح الحقيبة برفق، هاماً بجلب مرفقاتي في العمل، يجلس قبالتي ويغط بنوم عميق، أحسبه كذلك، أو يمكث بجانبي في

أحايين كثيرة حال قراءتي، بل وحتى لمتابعتي لأفلام تشارلز برنت، بيد أني شعرت بأنه ما زال يعاني من الألم، فقد تيبس لسانه، وتغطى بسحنة صفراء مع جحوظ في عينيه على الرغم من صفائهما، كان موعد الدواء لم يحن بعد، لكني قمت بإحضار قليلٍ من الحليب، وشراب الماروبيتانت وخلطهما. تفاجأت من أن برانج يدور باتجاهين متعاكسين حيال باب الشقة، وكأن هناك ما يشي إلى أمرٍ مريب، مع صدور صوت من قبله، على الرغم من هوانه وتذبذبه، فتحتُ الباب لأجد ظرفاً محكم الإغلاق، مكتوبٌ عليه المريضة رقم (٣٤٥)، لم أبادر بالمسير أبداً، لكني تلفّتُ يميناً وشمالاً من دون أن أحسب لذلك، كان برانج يلتفُ بحركة لولبية متسارعة علّه يلتقط ملمحاً جاداً لينقض عليه، تقدمتُ بضع خطوات خجلة باتجاهات مختلفة، محدقة بالليل بعناية فائقة، غير أن ذهني كان شارداً بمسارب عدة، كانت كرات الإنارة المعمّدة في شارع الريمال تضفي استقراراً نسبياً، غير أن تضارب الأمواج أنهى هذه الجزئية، انجررتُ بالكاد نحو المنزل، تسللتُ إلى الحجرة وعيناي ما مازالتا عالقتين بالظرف، وضعته جانباً، هممتُ بفتح النافذة، صرتُ أعاين بحذر جم طبيعة الشارع ومنتهاه،

بينما ظل برانج يلهث وعيناه الجاحظتان اتسعتا من دون أن يهدأ، أي شعور أحمق أن تخشى ما لا تدركه العين وتعاين ماهيته، هل من المفترض أن استشعر بالأشياء؟ وأن كانت متوارية لأسس لجديتها، هل بالضرورة أن تتسع مخيلتي لأشيد للمخفي ضوءاً باهضاً، وأعوّد فكري على اعتباريته، لكنه متواجد فعلاً، تفحصتُ الشارع جيداً، كان الرجع الذي خلفه يفضي وحشة وقلقاً في داخلي، بل حتي في داخل برانج، لم يك الظرف ذا حمولة ثقيلة، غير أني وضعته بجوار الملف الذي جلبته معي من المشفى. بادرتُ بفتحه أول الأمر من دون الرجوع إلى الأوليات التي عن طريقها أعرف بينة هذا الظرف والمناسبة التي تم دعت لأرساله لي بهذه الصورة المريبة، أزلت الشريط برفق، فلم أجد ما بوسعه غير جملة واحدة "أنا القمر الذي تدّعيه السيدة ويكهام"، تأملتُ كثيراً عن المفاد الذي اختصته هذه الجملة لكني لم أعِ مقاصده، سارعتُ بفتح الملف بينما ظل برانج على مقربة من باب الشقة كونه أحسّ بشيء غريب قد حصل، استورقت سيرتها على مهل من أمري.

"ويكهام كولف المتقاعدة عن العمل في شركة بلاك دور لإنتاج التبغ، سيدة متزوجة ومنفصلة من السير بلاك

المقاول المعروف ورجل الأعمال الثري الذي يحظى باحترام من قبل عمدة البلدة، لم تعانِ من مشاكل عضوية غير أنها أدمنت العيش بمفردها، حياتها هانئة بعض الشيء، تزور قريباتها على قلتهنّ، تحضر الأوبرا وبعض الأفلام التي تعرض في سينما كلاكسي، لكنها تعرّضت لصدمة قبيل الزواج بعد انهيار جليد الثلج على البيوت المنحدرة على سفح الجبل والمحيطة به، وظلت ردحاً من الزمن مصابة بفوبيا الأماكن الضيقة والعالية، وأحياناً تسمع أصواتاً خفيفة حال امتحان السكينة لها، أصوات مختلفة تستنجد وتخفت، حصل ذلك مبكراً من حياتها، فقد عولجت بعدها بسنوات وما عادت تشكو من أي اضطراب نفسي حسب ما هو مكتوب، لم يدم ارتباطها بالسير بلاك طويلاً لعدم قدرتها على الأنجاب، ربما هذه أحد الأسباب التي حفزته على الانفصال -بحسب تخميني- بيد أنّها أصرّت على ذلك. كانت مواظبة على سماع موسيقى الهارد روك، وعازفة الكمان جانين جانسن، التي تحسن إظهار مفاتن الجسد أثناء العزف، وكأنها تستثير الأعضاء، وتجعلها تحلق بالفراغ، قليلة الشراب"، كل هذه الأمور تدل على أنّها إنسانة معتدلة بتصرفها، غير أن ما مدون في ملفها جعلني في ذهول

وريبة، كيف تقدم على بتر ثديها الأيمن، وأية وسيلة اتخذَتْها لتقدم على هذا الفعل، الغريب في الأمر أنها بقيت بثدي واحد بعدما عالجتها إحدى صديقاتها!، لتسترد عافيتها بفترات متقطعة، تقول جارتها مدام فيري، التي تعمل مديرة لإحدى مدارس الرقص. بعد الحادثة، كانت تستهل صباحها بالموسيقى، ترقص متماهية، وكأنها في عالم مغاير عن عالمها الأم، لتبدو عليها مظاهر الفرح والإيجابية، لعلها تزيل حملاً ثقيلاً عن كاهلها، تفتحُ نوافذ منزلها بقصدية، كنت أشاهدها وهي بهذه الروح المنطلقة، كأنها تريد أن تُعلم الآخر بحالتها هذه. تبرمتُ في سري، وما هي دلالة الآخر بالنسبة لها؟ تستمر وتقول:

- تزورني في نهاية كل أسبوع تقريباً متأنقة وزاهية، كنت أتحاشى الحديث معها في هذا الموضوع، تسألني عن أحدث المقطوعات المعنية بالجسد التي صدرت حديثاً، أجيبها بتفانٍ، إلاّ أنّها في الفترة الأخيرة تأزمت حالتها، وأصبحت تلهج بجملة غريبة لا نعرف كنهها بالضبط "القمر وحده الذي يعرف"، عاودها طليقها لمرتين أو ثلاثة، وكان يسأل عنها من خلالي، المتابِعة الوحيدة لحالتها أنا، وقريبتها التي تسكن في أطراف المدينة، وهي امرأة تنتصف الخمسين لا تستطيع المجيء

كل يوم، إلاّ أنّها انقطعت عن مواصلتي لمرات عديدة، كان آخرها هذه المرة، والتي على إثرها نقلتْ إلى المشفى، هذا ما دونته جارتها، وقد ترتبت عليها كثير من الآراء التي أُخذت بعين الاعتبار فيما بعد.

انهمكتُ في أن أؤشر على بعض من التفاصيل الغامضة، لعلّي أستدل عن طريقها على شيء ما، فيما لو استطعت أن ألمَّ بغرضها جيداً لأزلتُ ما بحوزتي من أسئلة ضاجة، كنت منحازة في أن أعرف اللحظة الضاربة التي ينفلت الإنسان فيها من ثباته، ليكون عدوانياً بهذه الصورة، كيف لها أن تستدعي هاجساً شرساً؟! وأي فعل تقصّدها حيال هذه الجريمة، لكن لماذا هذا الاختيار الذي يبرهن على أنّه خدشٌ في مجمل أنوثتها، وأي رديف عضوي، أو نفسي يستعيد مهابتها إزاء نفسها على الأقل، هل هو احتجاج؟ أو نقمة. ركنتُ الملف، وتركت قوامي يسترخي، لم يبق للفجر سوى ساعتين لا غير، كنت أتابع الجملة التي تسللت لي خلسة، لحظتها توقدتْ أفكارٌ جمة للدخول إلى عالم ويكهام المختلف، لا علم لي عن حياة هذه السيدة، وعن أدائها اليومي في كيفية التعاطي مع الواقع (ثدي واحد)، عبثاً رحتُ أتفحصُ جسدي، وأتلمسُ ما يميز جنسي، وأنظر إلى المرآة

بترقب، مررت كفي على ما يصيرني أنثى، ويجعلني أتفرد عن الآخر، ثدييَّ، فخذيَّ المفصّلة وما بينهما، أحسستُ أن ثمة آخر يراني، مرآة بطعم الآخر، لعلَّ المرآة عين الآخر، الدائرة التي استشعرها للتو، كنت أخفي ثديي الأيمن، أو أرفعه إلى الأعلى، أو أحرفه بتجاهين متعاكستين، مانحة صورة مغايرة عن السائد، ومتماهية مع الوجه المدّعي الذي تخفية، غير أن حركة برانج المهتاجة ولهاثه المتواصل أفزع المخيال الذي أحاطني، لكني استطعت أن أكوّن جزءً يسيراً مما تكنّه، ارتديتُ ملابسي الداخلية بأناة، وارتميت على الفراش، كان الطقس بارداً للغاية غير أنّي لم أحاول أن أسحب الغطاء فقد وهنت وأخذ مني التفكير مأخذه، مستوفية ما أدّخره من رؤى متضاربة هاجساً للدفء، ليبادر برانج بسحل الفرشة وكسوتي بصورة جيده، مندساً قربي بهدوء.

بهتَتْ الظلمة، كان برانج أحسن من ذي قبل، على الرغم من أن خموله وتباطؤ حركته لم يغادرانه كلياً، استسمحتُ جارتي بأن تبقيه معها، فرحتْ بذلك غير أن زوجها السكير قابلني بوجه متجهم، استدركتْ الأمرَ بعد أن أمسكتْ السلسلة وحقيبة الدواء لتوصلني بتأوه، آه كم أعشق تربية الكلاب، لكني لا أطيق صوت هذا الصعلوك

مشيرة إلى زوجها، كوني مطمئنة عزيزتي هيلي، ركبتُ سيارتي متوجهة إلى مشفاي، ما زلت أمعن النظر في ملامح المارة، وقد أودعتني جارتي شيئاً مما تضمره، لأستفهم عن المبرر الذي يجعل الإنسان صابرا على مرارة لا يطيقها، هل هي الحاجة؟ أم الرغبة؟ أم المجتمع؟.

حال وصولي إلى المشفى اتصلتُ بويتش مستفسرة عن حالة ويكهام:

- في حجرتها آنستي.

- حسناً، سأبدأ جلستي معها.

- كما تحبين.

تقدَّمتني ويتش بفتح الباب، عدلتْ عن جلستها قرب النافذة بعدما شاهدتني، ابتسمتُ لها ابتسامة مُرضية كأني أعرفها منذ أمد، لتبادلني بملامح صافية مرحِّبة بي، استأذنتُها بالجلوس، أطلقتْ بصوتها كلماتٍ لم تصلني، مستديرة من مكانها لتكون قبالتي، انتبهت إلى أن ملابسها ذات ألوان متناسقة، ونظيفة جداً، وشعرها مصفف بعناية فائقة، لمحتُ أن أشرطة جانين جانسن بوفرة، وغيرها الكثير على هذه الشاكلة، بيد أنّي ركزت على تقاسيم جسدها، فقد أتى متموجاً مستقراً، لم تكن ثمة إشارة

مدعاة للشك على الجهة اليمنى من صدرها، سألتها، لماذا تسرفين النظر إلى القمر يا ويكهام؟ على الرغم من سعة السؤال الذي باغتها، لكني تطرقتُ له بصورة دافئة. لحظتها انسحبتْ أنظاري بعيداً عن أوان الإجابة، مقلّبة حفنة الأشرطة، متوقفة عند لوحتين لا غير، كانتا معلقتين بمستوى واحد، كل على جدار، وبصورة متقابلة كخاطرة مني بعدم استجلاب الرد عنوة، لعلّه حوار ما بين صديقتين حميمتين، صرتُ أعاملها من دون قيدٍ أو شرط وأصغي إليها بدماثة، لإزالة المحاذير المترتبة على بيان صورتها أمامي، استرقتُ بعضاً من ارتساماتها بالتفاتة خفية، فقد اجتزأت وأضحت سائلة غير متكافئة حيال ما تطرقتُ إليه، لكني أعدت ثقتها بنفسها، محاولة مني تغيير أسلوب الحوار عن الموسيقى، أو نوع العطر الذي تستخدمه، لتستهل حديثها بحيوية واسترسال عن أفخم أنواع العطور، هامة بإحضارها لي، كنت أتفحص انهماكها جيداً، ومدى استجابتها لما طرحته، وكأنها تنتظر هذا الدرس لتمنحه لمن يشاء بعفوية وتودد، استحسنت الكثير مما قالته لأبادلها بكلمات تستبين عدم معرفتي بما تقول، مستفزة وعيها قصداً عبر اتساع ملامحي، والإثارة الواضحة على محياي، علّها تفضي إلى ما يخرج عن

سياق الحديث بانشطار جملها من دون أن تستمكن من إعادة تدويره والسيطرة عليه وفقاً للضرورات المعنية به، لكنها كانت منضبطة، لم يظهر عليها ما يدل على الوهن أو الهذر، لأنشدّ معها مانحة إياها مجموعة من الاستفهامات المثمرة التي تجعلها في مأمن مما تبدي فتثوّر حاجتها للكلام، كأن يكون عن الرياضة أو الفن، غير إنّها تراجعت من مكانها لتدلي عن رأيها، بعد أن استقامت بحركة متسارعة، وكأنها تسترعي انتباهي لتمسك فيما تبوح به:

- سأريك يا صديقتي، ثمة تناغم مهول -تقول هي- بين جسد المرأة والموسيقى، كونها تظهر جميع المفاتن المخبوءة، تسللت بخطوات محكمة نحو الأشرطة، كان سيرها الراكز ينذرني من ان هناك عالماً موازياً لعالمها الآني، فقد أتى معها بخلاصة الكلام بأن تنطلق في حجرتها على مقطوعة جانين جانسن، لتمتد ما بين مساحتها النغمية المحلقة على المدار، وكأنها قد عادلت رؤيتها ومتبنياتها التي تدور في كنهها، لتهبه لنا بهذه الصورة، كانت متفقة مع الحياة ومتوائمة بهذه الروح البهية، لكنها -وحال انتهائها من مقطوعتها- توقفت قبالة المرآة، وأخذت تمسّد صدرها بعناية فائقة، غير أبهة

بتواجدي، أسرفتْ بعض الشيء بالجهة المقطوعة، لتعدل من وقفتها؛ فترفع صدرها مرة، وترخيه مرات عديدة، لتعرض جسدها باتجاهات مختلفة، بعد أن طوت كنزتها الملتصقة لتمطّها حتى لا يبين أن ثمة عيباً في هذه المنطقة، وكأنها توازن بين شيئين معينين، لتنهي أمارة الشك التي سورتها، أمهلتْ غايتها قليلاً لتستدير نحو النافذة بعد أن سحبت كرسيها المتحرك، وراحت تسهم النظر نحو السماء، وكأنها تستنطق شيئاً معيناً حال رؤيتها له، دنوتُ منها بروية لأهمس بالقليل من الكلام:

- أنا سعيدة بهذا الوقت، سأعاود المجيء فيما بعد، لو سمحتِ لي طبعاً، لم تحرك ساكناً أبداً، و لم تحر جواباً لكلامي، كانت جادة في نظراتها، شعرتُ أن هناك من ندهها لهذا الفعل، حزمتُ أغراضي وخرجتُ من حجرتها على أمل أن أجدول لها جلسات خلال الأسبوع، كنتُ متيقنة أن ويكهام قد استوطنت في عالميين صريحين بكل ما تحمل مدونتهما من مآثر، فلم تستطع الانفصال من عالمها الثاني حال رؤية جسدها قد تعرض إلى كسر في صورته الأنثوية، ممتثلة أمام المرآة لترى ما يراه العالم خارجاً وكأنها تعيد المدار المعني بعالمها الأول لتؤنب حالها فتكون بهذه الهيئة، بيد أن

المشكلة تعود إلى الكيفية التي من خلالها أعيد ثقتها بنفسها لأغيّب عنها النزعة التي تلبستها.

كتبتُ ما شاهدته واستنتجته مرفقة نسخة إلى الدكتور، وأدرجت الأخرى في ملفها، حال خروجي من المشفى لمحت ويكهام مستكنّة بجلستها التي تركتها عليها، أكملت مسيري مستشعرة لوعتها حال تحولها الغريب، احسست أنها في كون منافٍ لألفتها، تفور في هذه المحنة، كيف لها أن تزيل هذه الفكرة وتلوك براثنها؟ أيّ يقين يستبسل ليلزمها بأن جسدها لا يعاني من نقص؟ هل لها أن تمحي من هاجسها هذه التفصيلة؟ أم تطمئن عندها بوصفها مراساً حياتياً لا يترتب عليها شيء يجعلها في دائرة الخذلان فلا تستطيع الفكاك منه؟.

طفتُ بهذا المخاض المعبأ بكثير من الأسئلة المترامية، غير أني لم أجد معنى للقمر، أو غاية للظرف الذي وصلني؟.

حاذرتُ أن أنطلق معها بكامل التفاصيل، خشيتُ من أن تتفاقم حالتها، لكني استعلمت عن طبيعة تصرفها وتشبثها بالحياة لأؤشر على بعض من مواقفها حيال سلوكها المعتاد، الذي من الممكن الاستفادة منه للوصول إلى النقطة الرئيسة. أكملت طريقي لأتجه إلى كلبي

المـدلل، كانـت جـارتي سـعيدة ببـرانج، لـم تـأذن لـي بالدخول؛ عرفتُ أن صعلوكها السكير متواجد في منزلها، وصلتُ شقتي، وضعتُ ما بحوزتي من مهام، عزلتُ ملفة ويكهام لألتفت إلى برانج بجدية، إنّها موضوعتنا الليلة أيها المشاكس، كانت صحته أكثر من جيدة، فقد تماثل كلياً للشفاء، هذا ما جعلني أسوق غايتي نحو قضيتي المهمة، استرحنا قليلاً بعد أن تناولنا وجبة الغداء، تبعتُ عينيه يحلقان من النافذة، اقتربت منه بلطف، عنيتُ ما كان يقصده، دعكتُ فروة رأسه لأبادله عن نيته "سنخرج الليلة"، ابتشر وأخذ يدور في الغرفة ناطاً هنا وهناك، ليستعيد مكانه قرب النافذة مرة ثانية، ماداً بلهاثه المستمر، كنت أستقرئ اللغة الماكثة بالصمت واللهاث من دون ترجمتها بواقع الكلمات أو أي تلويحة تأتي مباغتة منه تشير إلى ماهية القصد، هل استطعت أن أفهمه إلى الحد الذي يمكنني التبحر بما كان يدور في نواياه، أيّ مقدرة روحية تفسر هذا الشيء، كان شارع الساين ليف يعج بالمارة والصخب الممتلئ بكلمات ذائبة، جلسنا في مطعم الكرنك الذي تعودنا الجلوس به، كنتُ قد شاهدتُ فيلين وبجانبه إحدى الفتيات. نويتُ الانسحاب لحظتها لكني تعمّدتُ البقاء لأسعد بيومي الجميل وأن لا

يزعجني هذا الأبله. استرجعت في ذهني الرسائل التي كانت تخاطبني الكنيسة بها، لأستبين حقيقة أن أمسك جسدي وأحافظ عليه، لا أن أمنحه سلعة واهية إرضاء للآخر وأن كان على حساب قناعتي في التصريح عن مدى مقبوليتي من عدمها.

أكملتُ العشاء، صرتُ التقط صوراً لبعض من الوجوه التي اصطفيتها بكامرتي الفوتوغرافية، إمعانا لعادة زاولتها منذ صباي، لكني تركتها بعد أن تخصصتُ بعلم النفس وانشغالي بالحياة وما لها من أثر، على الرغم من ذلك، فقد استفدت من هذه الهواية فيما بعد، كونها أعطتني القدرة والفطنة على التوغل في كثير من التفاصيل الصامتة والهامشية، وأظهرها على السطح، لأعطي تقييماً وافياً عن الحالة التي يمر بها الوافد وما أتلقاه من سمات تخصه، تبعاً لما استحصلتُه من البعد البصري لمسار العينين: (ملامحه، وجهة النظر واتجاهاتها، ابتسامته، طريقة اصطفافه مع الشخص الذي بجانبه بل حتى وقوفه ومستقرّ، جلوسه)، كلها عوامل تُقرأ، وهذا من ضمن المفردات التي تمرنت عليها، فقد أعدتُ صوراً مدّخرة في مخيلتي لأختبر مقدرتي على إبداء رؤيتي المتفقة معهم أو مع العالم بأسرة، فلم يكن فيلين أو الراهبة

سندريس غير صورة، ومما لا شك فيه أن ويكهام صورة أيضاً لكن بارتسامات مغايرة، اقتربنا من كنيسة الكردلين، صرتُ أدور من حولها، فقد احتفظت لها بصورٍ عديدة في ذاكرتي، صورٍ بمعان مختلفة، استدرجني الطريق عند الساحل كان برانج يتنقل بين الصخور والموجات المتضاربة، تمده برشقات من الماء لينثر جسده بحيوية ومرونة، تجاوزت صخرتين أو اكثر وجلستُ على آجره شبه مستوية، كنتُ أرقبُ بعض العشاق موزعين بمسافات مختلفة وهم متماهون مع الليل، لم أشعر أنني بمفردي أبداً، كل شيء من حولي كان ساحراً، جلتُ بنظري وبحركة محسوبة بعض الشيء لأعمدة الضوء البعيدة من دون أصرار على إعادة الكرّة ثانية، هممتُ في أن أحرّك ما بداخلي، حاولتُ أن أرقص غير أن الأرض كانت غير مسطحة، ثمة شيءٌ ما يجعلني أفتح ذراعي للريح، لم يبتعد برانج كثيراً، فما زال يذرع الخطى باتجاهات مختلفة، أدرتُ وجهي نحوه من غير أن أندهه، كان العشاق حينها قد انصرفوا، هل تتقبلني عشيقة يا جميلي؟ وهذا القمر شاهدٌ على مبادرتي؟ كدتُ أن التفت للقمر مرة ثانية معيدة الطلب، غير أني تذكرت ما التزمته ويكهام حيال نظرتها لهذه التفصيلة. سرحتُ فيما تذكرت، هل أن

القمر شاهدٌ فعليٌ على هذا العالم الأحمق؟ ومن هو صاحب الظرف؟.

سبقني برانج بمسافة قليلة، كان الطقس بارداً للغاية، اجتزت الشوارع الخلفية من الكنيسة للوصول إلى سيارتي، حال دخولي من باب العمارة، التفتُ إلى الأجواء التي حفل بها يومي من دون أن استحضر شيئاً معيناً، فقد كنت بروح مرتاحة، غير أني انصدمت من وجود ظرف أخر على باب الشقة، كدتُ أن أنفجر، انطلقتُ لأنتصف الشارع، صرتُ أدور مثل المجنونة ومعي برانج، كان جاري الصعلوك منسدلاً عند درج العمارة ويداعب قنينته، أيّهم يلاحقني؟ قلتها وأنا في حنق كبير، عدتُ مترددة إلى شقتي، حاولتُ أن أخرج منها مرة ثانية لأمسك بأفراد العمارة أو عابري السبيل وأحقق معهم لكني أرجأت ذلك، فتحتُ الظرف على عجالة، كان يحمل الجملة نفسها التي أرسلت لي في المرة السابقة، رميته بغضب على المنضدة، تقدمتُ نحو النافذة، صرتُ أتابع مرتادي الشارع من وراء الستارة علِّي اقتص من العين التي تتبعني، من دون أدنى شك، شعرتُ أن العالم يرقبني، ارتبتُ حتى من الجدران التي أحتمي بها، لم أنم تلك الليلة أبداً، كان برانج بجانبي يتقلب هو

الآخر، لكن ما الذي يريد قوله صاحب الظرف هذا؟. هل ثمة ما يستدعي المجازفة؟ قلتها وأمامي الصورة المتشظية لحقيقة ويكهام.

صباحاً، أودعتُ برانج إلى حاضنته، وانطلقت إلى مشفاي، اتجهتُ مباشرة لحجرة ويكهام، كنتُ قد احتفظتُ بكثيرٍ من الأمور التي تتطلب معرفة تفاصيلها متى ما دعتني حالتها للحديث، أبلغتُ ويتش بذلك:

- إنّها تمارس رياضتها الصباحية يا آنسة.

انتظرتها لحين ما انتهت، أومأت لها، لتبادلني بالمجيء:

- تعالي نشرب القهوة معاً.

فما زالت بكامل طلتها. دخلتُ إليها بروح ثرية ومتسائلة، كنتُ قد تفاجأتُ بوجود عدة لوحات وبأوضاع مختلفة لنساء عدة، الأولى امرأة ورجل بأذرع متعانقة، والثانية كانت لوحدها، لكن ثمة فجوة واضحة في ثديها الأيمن، والأخرى امرأة منزوية عند النافذة تنظر نحو الأعلى، هذا ما تبين لي لحظتها، سرتُ بمجاورة اللوحات بعناية، انبهرتُ بفنيتها، غير أن الوجوه بلا ملامح تذكر، إلاّ أن اللوحة الأولى صريحة وبملامح تامة ومشكّلة بدقة عالية، تمعنتُ بها جيداً، كانت ويكهام مع

زوجها هذا ما أدركته تماماً، أما اللوحتان الأَخريان كانتا مبهمتين لا وجود لخيط واحد يبشر بمحتوى معين كيما أؤسس من خلالها عن طبيعة الأشخاص، خلطة لونية باهظة لا أعرف كنهها بالضبط، بيد أنّها التصقت عن عمد بهذه الأجسام لتنبه الآخر عن غرابة الهيئة، هذا ما كان يدور في مخيلتي لحظتها، أتت ويكهام بعد أن استبدلت ملابسها لتوصل لنا فنجانين قهوة من استراحة القسم، بادرتها بالحال:

- هل هذا رسمك؟ وكنت ممعنة النظر باللوحات تباعاً.

- بالتأكيد.

- بالأمس كنت معك، من أين أتيت بالوقت؟ قلتها وأنا أحاول أن أستعيد يومياتها السابقة كوني خبرت عن مراسها الفائت وعن مزاولتها لأوقات الفراغ في المشفى.

- أنا أرسم في أوقات متقاربة، متى ما سنحت فرصة بذلك.

تأملتُ كثيراً باللوحات، تماهيتُ مع تصرفها اللوني بحذر، كانت خربشات الألوان متفاوتة في اتساقها وطريقه عرضها، أحسست أن ثمة ما يشدّني للسؤال، لعله ينم عن دراما معاشة وقتئذ، ابتسامتها في اللوحة الأولى

مرممة بالكاد، على الرغم من إزاحة نصفها العلوي باتجاه الذي معها كدليلٍ على توادّهما، مع أنّه كان معتداً ومبتعداً بنظرتـهِ، وأن كانـت الصـورة تظهـره بالشـكل اللائـق والمنسـجم، لربمـا شـيء مـن الضـجر المطلـي بهـذه الابتسامة، وكأنه التقط الصورة بنية مسبقة إمعاناً لغرض ما، استحسنت ما لدي من همة في التزام الصورة وتحليل جـديتها، تباطـأتُ حيـال الأولـى، بينمـا كانـت ويكهـام تحتسي القهوة ولم تعد تشير لي بالجلوس مبدية ابتسامة هانئة تكاد أن تختزل المسافة بيننا:

- ويكهام، هل هذا زوجك؟

- بالطبع.

- ولماذا انفصلتِ عنه؟

- كان شرها في مرافقة النساء. محركة رأسها بصورة اعتباطية، فقد تحدثتْ ولم تعلن عن استيائها.

تخطيـتُ وجههـا الأول بيـد أنـي مـا زلـت بأسـئلتي الموجهـة نحوهـا، توقفـتُ قبالـة اللوحـة الثانيـة كانـت لوحـدها بكامـل قوامهـا لكنهـا بـلا ملامـح، غمامـة لونيـة متباينة في صبغتها، لـم أبين لها أنها فارغة من أيّ ملمح يدل عليها بل أحطتُ بها قصداً من جهات عدة، لتعدل عـن جلسـتها باتجـاهي، وكأنهـا مقبلـة علـى شـيءٍ معـين،

لكنها لم تبادرني به، لعلّه لم تحن فرصته بعد، غير أنّه تراءى لها. أحسست أنّها أرادت أن تستفهمني عبر إسرافي بمعاينة الجنبة اليمنى من صدرها. كنت ساهمة النظر لها، مررتُ بيدي على اللوحة، كدتُ أن أقول لها ثمة انكسار هنا، لكنه وصلها، على الأغلب أنّه وصلها عن طريق إصراري بملامسة المنطقة، وتكرار ذلك لمرات عديدة، مع عدم استقرار حركتها أثناء الجلوس:

- لم تكوني على ما يرام هنا يا ويكهام.

قلتها ولم أستدر إليها، فما زالت عيناي منكبة باتجاه الصورة، لأناور خطوتي بسرعة، متجهة صوب اللوحة الثالثة، ولا هنا أيضاً. كانت علامات التلبُّك واضحة عليها، تقلّصت ملامحها واحمرّت أوداجها، وكأني توصلت إلى المخفي منها، شعرتُ بانهزام قدرتها على الكلام، دنوت منها:

- لماذا أنتِ متعبة يا ويكهام؟ وأي قمر يخبرنا بالذي حدث؟

أطلّت بوجهها من النافذة، وأخذتْ بمشهدها المعتاد.

جلستُ بجانبها، همستُ لها برفق:

- أنا على ثقة مما تقولين.

أسـهمتُ النظـر نحوهـا، لكنهـا التزمـتْ الصـمت فـي مكانها غير آبهة بتواجدي، ربتُّ على يدها وودعتها على أمل اللقاء، كنت قد استطعت أن أحرك ما في داخلها لكني لم أسألها عن زوجها، فقد بدا الأمر واضحاً بانهمار الملامـح واتسـاعها اللـوني فـي اللـوحتين الأخيـرتين، وكأنهمـا ينوبـان عمـا حصـل، خرجـتُ مـن حجرتهـا وأودعـتُ لهـا مظروفـاً مكتوبـاً عليـه: "أنـا القمـر الـذي تدعينه"، مستدركة ما حدث، وقد ادخرتُ لها نية مبيتة في أن آتي لها ذات مساء.

صرتُ أحتاج أن أجالسها بحضور القمر، وقد أبلغتُ ويتش أن يراقبَ وضعها جيداً خلال هذه المدة، نضجتْ رؤيتي حيال زوجها بصورة أخذت مني مساحة لا بأس بها من التفكير، غير أني كنت مجذوبة نحو خربشات الألوان المتضادة والظروف التي وصلتني، فقد فتحت لي نوافذ كبيرة، أغلب الظن أن ويكهام لم تكن ترسم بل تدون مأساتها على الرغم من عدم انعتاقها من هذه الفجيعة كلياً، لكنها نزعتْ إلى مكان حر وجدتْ من خلاله التعبير عما تكنّ وتقسو من غير أن تقصده، أو لعلّها قصدته، فالمرضى لهم عوالمهم الممتدة التي يبصرون أنفسهم عندها، وإنْ كانوا منفلتين عن أوانهم

الحالي، لكن ثمة هاجس مختزل يحرّكهم، ويصل بهم متى ما انحسروا في نقطة الصراع، أو الرجع المتصل بوعيهم الأول. صرتُ أتساءل بدراية وحزم، كيف لنا أن نحرّر أنفسنا من هذه الأسوار التي تقمصتنا، وأن نجترح منافذ نستكنّ عندها ونحن المرضى من دون كفاية بالمرض. بلا سبب تذكرتُ برانج وابتسمت، وصلتُ الحضانة لأجده في الحديقة، تودتْ المربيةُ عن وضعه الجيد، تجاوبتُ معها ببرود، كنتُ هائمة في تدوين ملامح الزوج، وقد استفهمت مسبقاً أن علاقتهما كانت متشنجة، لكن ما الدافع الذي يجعله أن يخدش أنوثة زوجته بهذه الصورة، هل ثمة عوق في ذهنيته؟ وصلتُ إلى البيت، فرشتُ الأوراق على الطاولة، وبعض مما بقي من أثر اللوحات التابعة لويكهام، لحظتها تزاحمت أفكار عديدة، وتداخلت مجرياتها، لكني أسرعتُ بتحضير الغداء، وهمتُ في معاينة ما كتبت، تذكرتُ في أن أعطي تقريراً وافياً عما حصل في الجلسة، لكني أهملتُ ذلك بل لم أعر اهتماماً في حينها، إمعاناً لتدوين الحالة وفقاً لرؤيتي المستجدة حيال الكثير من التطورات الواردة. صرتُ أستقرئ ملامح الصور الثلاث، كتبتُ عن ابتسامة ويكهام وارتسامات زوجها غير المرضية، تنهدتُ حياله

وكأني أقف إزاء الجاني، كنتُ أبصر مدى خداعه، لوحة واحدة تكفي لأستكتب مخيلتي بوساطتها، استفهمت في سري، وما العالم سوى لوحة واحدة، ليل ونهار ووجوه عدة يدورون في هذه الفجاج، انتقلت إلى تدوين اللوحة الثانية، كانت ويكهام حاضرة لكنها منكسرة ومحتجة، أخفت ملامحها في انغماسة الفقاعات اللونية كذلك في اللوحة الثالثة، لا علم لي عن أيّ فداحة كتبتُ، دنوتُ من النافذة، كان لهاث برانج يتصاعد، وهو ينظر إلى التلفاز بعناية، مكترثاً لمقطع من فلمٍ تظهر فيه سيدة أرستقراطية غاية في الإثارة، تصحب كلبتها الوادعة، نظرتُ إلى المارة وهم يحثون خطاهم، استعلمت في سري، كم صورة ترتضي حاجتي لأستكشف الطابع الذي يمرون به هؤلاء. تلمّستُ جسدي من دون الاكتراث لأحد، تنقلتُ في الشقة لأصل المرآة، كنت أرى ملامحي بصورة غريبة، خدين متورمين ومحاجراً داكنة. لم أستشعر كلبي الأليف وهو يتحسس أفخاذي، ولا علم كم سال من الوقت، غير أن الليل أعلنها بهدوء. أحسست بحاجة للذهاب إلى ويكهام، كنت مصرّة على ذلك، صحبتُ معي برانج، على الرغم من أني أردت إيداعه عند جارتي، لكني نحيت الفكرة لمعرفتي أن سطوة الليل عند زوجها

الصعلوك لها عثراتها. تفاجأ ويتش لحظتها، أرفقتُ معه برانج وطلبتُ معاودتها، لكنه نبهني بسماعها تتحدث على غير العادة، وكأنها تجادل أحدهم، وما عادت تنظر غايتها بعينين ممتدتين نحو الأعلى، بل تكرر جملة معينة على الدوام:

-وحده القمر الذي رآني، أنتم الكذابون.

دخلتُ عليها كانت منهمكة بالرسم وظهرها إلى النافذة، استدارت لي بالحال، بدت متعبة للغاية، غير أنّها رحبّت بي ولم تضع فرشاتها وألوانها، تركتها ورحتُ أتابعها عن كثب، لكنها ما بين ضربة فرشاة وأخرى تتناوب على معاينتها للجملة التي أودعتها لها، وكأنها تدرج معناها وما ترتّب عليها لتفسرها باللون، تقدمتُ نحوها، ما زلت أعي جيداً أن هناك منافذ كبيرة في أرشفة أفكارنا، لكم تمنيت أن تدّخر الريح حكايا الماضين لنتّعظ عن طريقها، علّنا نلتقط صوراً ناصعة لها، ونكتب ما نراه متفقاً مع الواقع. أمعنتُ النظر جيداً إلى اللوحة، كانت تخطيطات لرجل مستولٍ على جسد امرأة، وثمة عينٌ في آخر الزاوية، عينٌ أو قمر لا أعرف دلالته بالضبط. شعرتُ بالبهجة من أنَّ إشارتي وصلت إليها، متيقِّنة من وعيها الذي ساورها وإنْ بدا متأرجحاً، لعلّه

كان خجلاً أو محترساً جراء الصدمة. عنيتُ بها، كانت مواظبة على متابعة الجملة وإيداع مكنونها في اللوحة، ركزت على الشكل العام لها، بدت واضحة المعالم بتفاصيلها التي وصلتني، ملامح الرجل بدت مكتنزة وغزيرة في تكريس جزئياتها، بينما المرأة أضحت بملامح ضالة وشاردة على الرغم من تأجج الألوان وتدفقها، هل هو الخوف؟ أم الحذر من المجتمع؟ أم ثمة شيء لا ندركه بعد؟ أشرت بيدي إلى الندبة البيضاء التي في آخر اللوحة:

- إنّه الشاهد يا ويكهام.

شعرتُ أن شيئاً انتزعها من الجحيم لينقلها إلى جحيم مماثل، تفاوتت ملامحها بصورة غريبة، لأكمل:

- أنا مصدّقة لما في خاطرك.

سكتتْ وكأنها تتجول فيما قلت، متفحصة المدار ومصاف الكلمات جيداً، تؤنبُ أو تعاتبُ لعلّها تستنجد، تحركَ شيء في داخلها لكنه بدا خفيفاً، ومخاتلاً حيال العالم المرئي، وكأنها خلقتْ بهذا الأوان عن طريقي، أنا التي أطلتُ النظر في غربتها، وجردتها من هذه الوحشة لأعيد لها ثقتها بنفسها. كنت الهج بسؤالٍ ظل يطاردني على الدوام، لماذا حال مزاولتنا للخطأ لم تكن الشواهد

التي تحيطنا حريصة على صدنا، أو ردعنا أو تلاوة الخطيئة على الأقل حال احتكامنا للفصل، لماذا لا ينطق الجدار، المؤن التي بحوزتنا، الريح التي تلتف حولنا، لماذا لا تصرخ الطبيعة نكاية بهذا القبح المستتر؟ أليست هي مصدر الحياة؟ كيف لها أن تصمت وهي التي تشع بالمقدرة؟ هل لدينا خيار على إظهار الحقيقة غير الصوت والصدق بالكلمات؟ لماذا لا تكون الأحلام الناقمة دليلاً على الإدانة، والأفكار الواردة بغير محلها جرماً مشهوداً؟ هل ثمة عقوبة تلزم النوايا السيئة لتحاسب متبنيها؟ كيف لنا ونحن الذين أمهلنا مخيلتنا على اتّباع الأشياء المغلوطة أن نثأر للحقيقة حال وقوعنا بالمحظور؟ وممن نعتذر؟ هل نعتذر على فداحة الأفكار وتعريتها للعالم؟ أم للشخص الذي مارسنا عليه هذا الفعل؟ نظرتُ إلى ويكهام وهي الذائبة في تداعيات صراحتي، تنفستْ بتسارع ملحوظ، مطرقة على فرشاتها وخلطة الألوان، أبعدتُ عدتها اللونية برفق، وجلستُ قبالتها:

- لماذا فعل ذلك؟ أحدّثها وكأني أمسكت بالجاني.

سرحتْ قليلاً، لعلها أرادت أن تثق فيما أقول، انثنت وأمالت برأسها، أجزم أنّها سعت بأن تختار لغة تعبّر بها

عن هذا المصير الذي أصابها، لتردفني بالحال بلا مبادرة أولية منها:

- كنت الفاتنةَ، ولدتُ وأنا الثالثة بعد أخوين أثنين، أسرتني راهبة الكنيسة بأن القمر سيدخر لك حقيقة لا مناص من مواجهتها فاتبعيه ولا تبالِي من صمته. كانت الراهبة كلما شاهدتني مسحت على كتفي، وأغدقت ذوقي بالملح، لتصلّي في سرها تاركة ما يصلني بالقمر، كبرتُ وتزوجتُ من بلاك، كنتُ بهية معه في بادئ الأمر لكنه هجرني وتوعدني بالكثير بلا سبب يذكر. لم يكن يحدثني عن مسألة الإنجاب. انفصلت عنه لأسباب عديدة. سعدتُ بالعيش بمفردي. عفواً، لا أريد أن أبالغ بذلك، لكني تعايشت مع الوحدة، وأدرت مفهومها بالمراس والالتفات إلى أمور تجعلني أحيا، كنت أنظر إلى الشجرة التي تنتصف شارع منغريت بارش، وهي الماثلة أمام الإعصار لوحدها، صمتتْ برهة، واستدركتْ بعدها بجملة سريعة:

- ما أعظمها! والشمس التي تظهر بالكاد، والنجمة المستريحة، وكأنهن غريباتٌ. أحياناً أحاورهنّ وأتجاوب معهنّ، وكأني أسمع ما يخصني وأعانيه من قبلهن.

سكتتْ، لتستطلع المكان بعينيها اللتين اتسعتا، وابتسمتْ ببرود، أردفت قائلة:

- لعل الإنسان بمفرده يحاول أن يجد مستقراً له، أما الملل فيزول بكثير من الأشياء.

- هل لكِ أن تتبني حيواناً أليفاً في البيت؟

- نعم لدي قطة، لكنها تسممت وماتت.

تمعنتُ بكلامها جيداً، كيف لها أن تزاول وحدتها بهذه الصورة؟ لعلّها كانت السبب في إدراكها لوجودها، استرسلتْ بحديثها عن المزاورة ليلاً، ولعب البوكر، والنبيذ الدافئ في حانات سليبادور العطرة، نافرة بلوزتها بين حين وآخر، ومادةً قوامها بحركة رياضية، أعدتُ لها السؤال بصراحة أكثر:

- لماذا قطع شيلف ثديك؟

استقامتْ من مكانها وراحتْ تمهدُ لحديث مغاير، تبعتها بالحال، أشرتُ بيدي إلى ثديها المقطوع محاولة أن أؤكد لها أني أعرف قصتها. شعرتُ أنها تغلي ما بين أن تخفي انكسارها وتحاول أن تمحو نظرة الآخر، وبين أن تجد شاهداً للمثول أمام هذه الجريمة. أمسكتُ بذراعها بهدوء:

- أنا القمر الذي رأى كل شيء يا ويكهام.

أدارتْ وجهتها نحو النافذة وكأنها لمحتْ صوابها بتلك المكاشفة.

- لماذا فعل هذه الجريمة؟ قولي لي.

- لم أكن أعرف السبب، بل الوقت أيضاً.

كانت الأشياء صامتة جميعها، كابوسٌ بعينه اجتاحني ليضع شارته، غير أني لمحتُ القمرَ الذي بدا مضيئاً وموحشاً للغاية، تحسستُ كلامها الخامل وأنفاسها الغارقة، محاولة أن تستحضر السر الذي دفع زوجها إلى هذه الجريمة، لكنها ارتضت بالسكوت، لربما كان القمرُ وحده الذي يعرف، ومن أرسل الظرف، سألتها هل تعرف أن زوجها قُتل بصورة غامضة؟

- نعم، قرأتُ ذلك في الصحيفة.

- وهل تعرفين السبب الذي أتى بك إلى هنا يا ويكهام.

- البحث عن الحقيقة، لعله السبب.

قالتها بحرقة، محاولة أن تعرف السبب الذي جعل زوجها ناقماً عليها بهذه الصورة، وعن صحة ما تدعيه، مستعينة بالقمر ليلجم أفواه العالم بأنّها ليست مريضة، لكنها كانت تستغيث، تزم شفتيها لمرات عديدة. نظرتُ إلى القمر بتمعن، مفهرسة الظروف الورقية التي جاءتني

بالخفاء، متمتمةً بصوت خفيض، رسالتكَ وصلتني أيها الشاهد الصامت في هذا الكون. أدرت وجهي إليها:

- ستخرجين عن قريب يا ويكهام، سعدتُ كثيراً أن للقمر مرسالاً يؤمل المنكسرين على فجائعهم ليفوز بهم، خرجتُ بعد أن ودعتها بابتسامة منتصرة، لأجد برانج مسترخياً مع الحارس يشاهد فلماً كوميدياً يعرض للمرضى النفسيين اسمه "الذي رأى كل شيء".

الطائلُ في الفراغ

لم يكن حميد الجبران -رسام الكاريكتير المعروف والمحرر في مجلة (فن وتشكيل) الأسبوعية- وحده الذي فقد عائلته جرّاء الزلزال الذي تعرّضت له بلدة ساماس بمقياس (٧) ريختر، فقد صرّحت فرق الإنقاذ عن فقدان الكثير من سكانها، جاء هذا الحدث بعد إعلان وكالة (الرؤية) العلمية عن انفجار القمر الصناعي (نسرين) الذي أطلق في بداية العام الحالي نحو مدار الفضاء الخارجي، على أمل أن يستكشف خصائص الطقس، ويلتقط صوراً لبعض الأجرام السماوية التي تدور حول الأرض، وقد نوّه بيان الوكالة أن السبب يعود إلى عدم توافق الضغط المعني للغلاف الجوي وطبيعة الجسم القادم، لعلهما حادثان أحدثا ربكاً نفسياً وإنسانيا عظيماً، خرج الجبران من هذا الموت بلا صوت، فقد تبيّن أنّه تعرّض لصدمة عصبية أثّرت على ترددات الحبال الصوتية، وقد يرجع صوته تدريجياً في حال لو استقرّت حالته وتهيأ لاستيعاب قدره، على الرغم من ذلك كان مجِّداً في

معاينة التجمعات التي تستخرجها فرق الإنقاذ من الركام علّه يَحظى بمن فقده، لكن إقرار المركز الجيولوجي أوضح بأن قوة الطاقة المتحررة التي ضمنها الزلزال جعلت الأرض تنخسف، مسببة ضياع أغلبية البشر، فضلا عن انهيار الجانب العمراني.

أعلنت السلطة المحلية إخلاء المكان من الناجين وإيواءهم في مجمع (كلسون) البعيد عن الساحل، بينما كان الجبران يعاود ركام منزله كل يوم، وبحوزته حقيبة سوداء تضم أوراقاً بيضاء، وبعضاً من أقلام الفحم المصقولة، والسوفت باستيل الملونة، يجلس على دكة غير مستوية قرابة منزله ليبدأ بمزاولة عمله من دون أن يكترث لأحد، يتأمل الورقة جيداً محركاً أنامله ببطء مواز لتهدجات ملامحه المبطنة، وكأنه يصيخ السمع لنبضات عابرة يحاول أن يمسكها، ليضع ما التقطته مخيلته على الورقة، كان الناس جميعهم يدورون بحثاً عَمّن فقدوا لكن تراه مجداً في مطاولته للمكان ليعطي غرضه بتنويهات من يدٍ ضامرة وينهض بعدها، فيما إذا أتت نداءات لا يسمع محتواها ليشاهدها عبر انقضاء التجمعات التي تغادر بطلب من قبل القوات المسعفة لإفراغ الموقع، بسبب احتمال حصول هزات مفاجئة،

يترجل نحو أنقاض بيته ليلقي نظرته الأخيرة، يمد رقبته قصداً، يخصّ إحدى أذنيه برهة وكأنه يتحقق من شيء معينٍ فيغادر على إثره بعدما يطمئن من سماعه، يرجع إلى سكناه في آخر الليل ليعلّق الأوراق على الجدران، بعد أن يلتقط لها صوراً لإرسالها إلى الجريدة وينام.

في اليوم التالي يتلقى رسائل تنبيه من قبل هيئة التحرير تستفسر منه عن صحة الصور المرسَلة، كونها بيضاء غير مسودة بالتشكيل المعتاد سوى خطين متعرجين خارجين من ملمح باهت لاسمين شحيحين باللون والصورة، مستقرين باتجاهين متعاكسين من الزاوية العليا لبداية الورقة، يصرُّ على محتواها معيداً الإرسال مرة ثانية برسائل مكتوبة عبر الواتساب ليغادر بعدها الحديث ولا يأبه بأحد منهم، تصمتُ المناورات إمعانا لظرفهِ الصحي ليبادر رئيس التحرير بوضع (سيكتشات) أخرى مكملاً بذلك إعداد الصفحة، الغريب أنه لم يعترض عليها أبداً، وكأنه أراد أن يعطي حيوية لنفسه -قد يكون هذا السبب- على الرغم من كونه يسير بخطى وئيدة لا تخرج من هيكلية الحالة المصاحبة له، لكنها خطىً غير متعافية فلم يَبِنْ عليه ما يؤيد محنته أو يشير إليها بصورة علانية سوى الصمت المهادن للواقع

والمسلم لمآلاته، غير أنه بقي مواظباً على استقراء المكان على الرغم من بعد المسافة، كانت وحدات الإسعاف الطبية دائمة الحضور للتجمعات معتبرة أن احتقان الترددات الصوتية للجبران أمرٌ مألوف إمعاناً لشدة الهلع، بيد أن أحد الأطباء لاحظ شيئاً غريباً بعد أن أجرى فحص حباله الصوتية عن طريق منظار الحنجرة، تبيّن أنها سليمة ولا تعاني من تصدّع، عمل له أشعة ملونة تقرأ وظيفة خلايا الدماغ، وجد أن ثمة تعاقبا طفيفا في الناقل المعني بتكوين الكلمة وتشديد محتواها مسبباً انحسار القدرة على أطلاق الطاقة المعنية بالتمييز والتشخيص والنطق، لاحظ أيضاً عبر إسداء الأسئلة من أن ملامحه شاردة على الرغم من استكناه تفاصيلها فلا يبان أي رد فعل لمضمون السؤال وجدواه، خصوصاً بعد إعطائه تمارين تمكّنه من فهم لغة الإشارة فلم يستجب لها، قد ينفذ جزءاً منها إمعانا لطبيعة الشعور المبيّت لديه، يفتح فمه أو يمط لسانه، لكن ملامحة لم تكن مؤهلة لاستيعاب اللحظة المقدّر بيانها، وما زاد من تصويب حالته طبيعة الأوراق المعلّقة هنا وهناك من دون محتوى واضح، نُقل الجبران إلى مشفى الجملة العصبية الواقع في آخر البلدة، بعد أن أُخذ له رنيناً مغناطيسا كاملاً للدماغ تبين أنه يعاني من

ترّهل الإيعازات الحسية التي تصل الذاكرة، مع ارتجاج الخلايا التي تجهز فيزيائية الصوت مؤثرة على ماهية الاعتقاد والظن والحدس، مكونة اختلالاً في كهربائية الناقل المعني بجهاز النطق، وقد جاء نتيجة تعرضه لصدمة قوية عن طريق عصف مروع، أو نتيجة مشاهد غير مألوفة جعلته يتمرغ بالألم، لذا فأن مقدرته العقلية لا تستوعب هذا المخاض ليكون متأرجحاً ويعاني من نكوص ذهني ليس له بد من أن يعبّر عن هذه المأساة، قد يصل إلى انحسار نفسي عظيم يجعله يهذي محاولاً أن يستخرج صوته، وهذه نقطة بعيدة المنال تمكنه من استيعاب الحقيقية وهضمها ليكون غير متكيّفٍ لهذا المآل، وهنا يبان احتشاد المشاهد الصعبة في مخيلته فيصمت حيال هذه الرهبة.

شُخصت علة الجبران جيداً، كانت عنايته في مشفى البلدة لا بأس بها على الرغم من هروبه لمرات عديدة ورجوعه إلى موضع بيته المتهالك، لعل المرة الأخيرة التي فرَّ من المشفى كان بعد أن عُرض على جهاز الأشعة الصوتية العالية لقياس منسوب قوة توليد الطاقة في صوته ومدى فاعلية أوتاره، كانت ارتساماته مخيفة ومشدودة وكأنه في محنة مقاومة بين الحياة والموت، خرج إلى

موقع الزلزال وراح يدور حول ركام بيته هاماً بتمرير حواسه بصورة دقيقة وكأنه يستمع لأشياء لا يدركها الآخر، كان نهماً في معاينته الركام، على الرغم من لوثة الواقع وانشغال فرق الإنقاذ بتمشيط المكان، استقرت خطواته بصورة مفاجئة عند موضع معين، مالَ رأسه منصتاً بترقب وكأنه يحاول أن يسوّغ مدى تفانيه واستجابته للمؤهل الذي يجعله شغوفا لهذا الحد، عدّل قوامهِ وراح يَسير بتؤدة في اتجاهات مختلفة آملاً أنّ يجد ضالته لكنه أمهل نفسه بعض السكون ليجلس على الدكة نفسها مستوفياً عدّته ليزاول غايته، أكمل ما لديه بعدها همَّ بالذهاب إلى حجرته وبالفعل عينه علّق الأوراق على الجدران معيداً التقاط صورٍ لها لإرسالها إلى الجريدة، الشيء المحيّر كان يقرّب أذنيه باتجاه الورقة وكأنه يصغي لحراك معين يستكشف أثره.

بقي الجبران على حاله هذا، على الرغم من أصرار الوحدة الطبية على متابعته وإرجاعه إلى المشفى، غير أنّه كان متزناً في أدائه لا يأبه بمن حوله منجاباً نحو تفاصيل لا يعرف كنهها غيره، فلم يتفحص طبيعة الآخر أو يتجاوب مع تصرفاته وكأنه في عالم مختلف عن عالمه الآني، لكن الذي حصل بعد أن اختصته الوحدة الطبية في

إحدى المرات جعلت الطبيب المختص يتوقف عند حالته، أمر فوراً أن يُعرض على جهاز يقيس مدى فاعلية الدماغ وارتباطه بالفعل الحركي الذي تنفذه الأعضاء، لاحظ أن حالته تطورت عما كانت عليه، ثمة تقاطعات كهربائية في خلايا المخ تؤثر على عملية الكلام وهذا التأثير جعل عدم مقدرة جهاز النطق على تمرير الموجات الصوتية، الغريب، ثمة كهربائية محتشدة تتغلغل في الجانب العاطفي لخلايا المخ مما يجعله يرى الأشياء بصورة مختلفة عما يراه الآخر، متصوراً أنه يرى ظلال الأشياء على أنها حقيقة ممكنة، فيتوافد عنده شعور كلي بالصوت ليشكل وجود الإنسان على هذا الأساس متعافياً بالطاقة المسكونة في دماغه فقط، مدركاً عن طريقها الحضور الفعلي للآخر، هل يكفي الصوت أن يكون حقيقة ممكنة ليسوّغ وجود الآخر؟ وهل هو ظلال لحقيقة الوجود؟ أغلب الظن أن الجبران كان لا يستوعب من حوله بصورة صحيحة، يتعافى بتداخل أصوات من يحب في مخيلته، وقد يدرك الآخر جيداً على أنّه طاقة كامنة باعثة في الفراغ في حال وصول هذه الطاقة إليه، وقد لا يقتنع بما يراه الآخرون على أن الوجود الفعلي هو الهيئة،

لعل الصوت هو الدال الوحيد على الوجود، هذا في نظر الجبران.

عُرض التقرير المكلف به الطبيب المعالج على لجان مختصة لتجري كافة الإجراءات اللازمة له، مستوفين علاجه على عدة مستويات لعل أولها تصل به إلى تبديد الذبذبات الوافدة في ذهنه عن طريق استقرار عمل خلاياه وإزالة التسارع الوظيفي لعمل الناقل بواسطة العلاجات الكيمياوية، بالإضافة إلى مجموعة من التمارين الفيزيائية المسلطة على جهازه العصبي، غير أن الشيء المحيّر هو كيفية سحب هذه الذبذبات من دماغه وتأهيله إلى وضعه الطبيعي، نوّه دكتور (نوزاد متي) الباحث في فيزياء الصوت وأستاذ العلوم الطبيعية في جامعة (كاوين) إلى معرفة مدى فاعلية الترددات المنحسرة في ذهنه كون الحالة غريبة ولم يبت في شأنها سابقاً، كان ناقل الإيعاز بين خلايا المخ متوتر بعض الشي لكن هيئة الجبران بدت واثقة أو تبان للآخر كذلك، أوكل نوزاد حديثاً إليه بصورة مباشرة غير أنه لم يكترث بما يقول، أدخله في غرفة تحفيز الأوتار الصوتية باثاً له طنيناً يثير مدى قابليته على الصراخ لكنه لم يستجب، على الرغم من ترميشة العينين البسيطة وارتباك أوداجه غير أنها لم تكن بالمستوى

العالي بحسب قوة التيار الذي أعطي له، أراد نوزاد أن يستكشف مدى تأمله على وفق التصويب الذي تبيّن له في التحليل والتقرير اللذين وصلا إليه، أحسَّ أن حالة الجبران من النوادر التي يجب التوقف عندها موكلاً جلَّ اهتمامه بالصوت الذي تزّعم مخيلته، حاول أن يبصر حقيقة مكانه، طريقة عيشة، مع من يتحدث؟ كيف له أن يمارس عمله؟ تعرّف على الحجرة التي يسكن بها، كانت ممتلئة بأوراقٍ بيضاء فارغة وقد لا تخلو من بعض الخطوط المتعرجة والباهتة التي منحت غموضاً لاستيعاب زمام الفكرة، لكن الذي لفت نظره كمّ الأقلام الملونة الموضوعة على المنضدة وكأنه يمارس عمله بصورة دائمة، أمعن النظر جيداً، ثمة اسمان كُتبا بضبابية في الطرفين العلويين لمساحة الورقة، الأول يدعى سارين والآخر نيفرو، كان نوزاد يحدّق فيهما بينما تركزت أنظار الجبران نحوه على غير العادة، مرر نوزاد يده نحو أحد الأوراق هاماً باحتواء الاسم، فزع الجبران من مكانه غير أنه لم يبادر بفعل شيء لكن ملامحه كانت تتحدث بل تعترض أيضاً، غيّر نوزاد وجهته مانحاً سمة عدم الاكتراث متقصداً إثارته ليستعرض حالته إزاء التصرفات التي يقوم بها، جلس على كرسي قبالة المنضدة، ثمة ورقة

موضوعة مدوناً في زاويتها اليسرى كلمة سارين مع خطوط متقطعة تخرج من نهاية آخر حرف من تشكيل الاسم بالكاد يشاهدها من أعانه النظر في مضمونها مستقرئاً صفاء مساحتها من عدمها، لاحظ أن الجبران بدا بعينين شاخصتين وكأنه يخشى من شيء عظيم، أعاد نوزاد تمرير يده على الاسم غير أنه أوقفها من دون أن يحركها، بالحال انتفض الجبران من مكانه بصورة غريبة وراح يدير وجهه يميناً وشمالاً زاماً على شفتيه حينا ومناوراً فمه بتهدجات لا إرادية حينا آخر، معاوداً تكرار العملية لمرات عديدة وكأنه أراد أن ينقذ أحداً من موتٍ محتوم ليستعجله بهذه الصورة، تقدم نحوه بسرعة ساحباً الورقة منه ليعلقها على أحد الجدران، كان منهكاً والتعرق بدا واضحاً على ارتساماته، بينما بقي نوزاد جالساً في مكانه، غير أنه أمسك بأحد أقلام التخطيط ونهض من دون أن يتابع مجريات الحدث، وراح يوضّح الاسم مانحاً شكلاً أكثر عمقاً وتكريساً لمعناه الصوري مع تشديد الخط الخارج من نهايته، وضع القلم جانباً ليباشر بكتابة عبارة كبيرة:

"أصواتهم شاهدة للعيان، أصواتهم في الفناء، أنهم موجودون بأصواتهم" وغادر بعدها.

في واحدة هي الأشهَرُ من تصريحات الأنثروبولوجية الدكتورة (أمل الورد) أستاذة علم السلوك المعني بطبيعة المجتمعات أنها استشرفت إلى افتضاح مكنون الإنسان وجوهره إزاء الأوان المعلوماتي الذي جعل الإنسان في دائرة الضوء، وقد نوّهت في مؤتمر غيلسا العالمي بأن الأفكار التي تحيط الفرد من الممكن أن تكون مكشوفة، مشيرة إلى حيثيات التقنيات التكنولوجية وهنا يكون الواعز الذهني مقيداً ومكبلاً تبعاً لأنشطة هذه التقنيات، وقد أشارت إلى استقراء عالٍ سيكون له وقعه في قادم الأيام لمعرفة الأحلام وإظهارها علنا، بل ثمة محفّزات لبعض خلايا الدماغ تثير المخيال وسعة تقصيه ليكون مداها واضحاً على هاجس الإنسان وبيان غايته جلياً في تنشيط مساحته التأملية عند النوم، مستجلبة عقله الباطن لتظهر ارتساماتها المدخرة في الذهن على الواح إلكترونية بعد أن يتم ربط مكان الرأس، بوصفه الجزء الذي يتوالد فيه المحتوى والتأكيد على بعض من أجزائه على أنها مناطق الوعي النشطة، وربطها بموصلات لها قابلية على نقل البيانات، ليتم ادّخارها حاسوبياً وقد أشارت في جنبة أخرى إلى أن الصوت طاقة فيزيائية تبقى معلّقة في المجال ومن المستحيل إبادتها، إذ من الممكن أن يتم

استرجاع هذه الطاقة وإن كانت لأزمنة فائتة، وهنا احتكمت إلى استباقية ظهور الأجهزة الحديثة مانحة الجدوى الكبيرة للعلم، المحيّر في الأمر أن عمودها في مجلة (الحياة العلمية) قد رفع بعد أن نشرت عبارتها الشهيرة "أبذروا أصواتكم، سيكون للصوت دلالة فيما بعد"، كنت قد تفيأت أثرها وعلمت أنها كبرت وأحيلت على التقاعد، لكنها ما زالت دؤوبة في مشوارها والتبشير بحياة قادمة خالية من الخصوصية، في الوقت ذاته تناقل حديث سري من أن دائرة الأبحاث العلمية بصدد الانتهاء من جهاز يعي مدى الذبذبات الصوتية الفائتة عبر الأزمنة، على اعتبار أن الصوت طاقة ولا يمكن فناؤها في الفراغ، فضلاً عن إدراك الذبذبات التائهة في طبقات الأرض وهنا يكون تصويب علمي عالٍ لإعادة تهيئة الإنسان عن طريق الصوت على أنه شاهد لا يقبل العدول، أشرتُ لحالة الجبران المتمرغة بالكثير من التداعيات التي عنيت بالصوت والصورة لكن ثمة طاقة صوتية بقيت في ذهنهِ، هل هذا صحيح؟ وكيف لها أن تكون؟ وبأي وسيلة ممكن أن نتحرى عنها في حال لو آمنا أن الصوت طاقة لا يمكن أن تضيع في الفراغ، وقد تتعلق في زاوية معينة من مساحة الكون الشاسعة، على اعتبار أن الوسط الناقل هو

الهـواء فمـن غيـر المسـتحيل أن تضـمحل بفعـل التقـادم الزمنـي؟ لعـل أصـواتهم اسـتحالت صـوراً لتتمـاهى فـي مخيلته فيـدّعي أثرهـا هـذه الموجـات الـدائرة فـي الـذهن، وإن كانت كذلك، كيف لها أن تدخل في دماغه؟ وعن أي وسـيلة نقلـت؟ تأمّـل نـوزاد الأسـئلة بعنايـة وراح يتـابع تفاصيل الجهـاز الـذي انبرت دائرة الأبحـاث العلميـة فـي إنشـائه، علـى الـرغم مـن إيـداع الأمـر بـالغ السـرية بسـبب طريقة التعاطي مع المادة النافذة غير المرئية، لعله برهـان على إثبات الحقيقة عبر استرجاع الأصوات المعمرة وإن كانـت منـذ أمـد بعيـد، أو إشـارة لأن يعصـم الإنسـان مـن الخطأ كونه يدخر تردده الموجي ليشغل حيزا في الفراغ كشاهدٍ على ما قاله، أراد نوزاد أن يبلغ الجبران عـن تقنية الاختراع لكنه توقف عند لغة التخاطب التي يستعلمه بهـا، فكّـر ملياً باسـتخدام لـوح مسـتطيل أبـيض اللـون وسـهل الحمـل يكتـب عليـه بخـط عـريض وبمسـتوى أفقـي واحـد (سـارين ونيفـرو) علـى أن تكـون المسـافة بينهمـا واضـحة ليبعث من موضع انتهاء الاسمين خطوطاً متعرجة تلتقي في نقطة واحدة تدعى الجبران ليحيطها في دائرة شـاهدة للعيـان، سـأل عنه في مجمّع الإيـواء لـم يجـده، سـار إلـى مكانه الأثير ليبصره جالساً على دكته الرمادية، ينظر إلى

ورقة فارغة وبحوزته حفنة من الألوان، لكنه كان يمرر أصابع كفه اليمنى عليها بصورة دقيقة وبعناية مهولة وكأنه يتفحص نبضاً معيناً مراهناً عن طريقة سبل النجاة، وقف أمامه، تقدم نحوه قليلاً، كان هائماً في دوامته، عرض اللوح المستطيل مستديراً باتجاهات مختلفة فلم يعره انتباهاً، لاحظ نوزاد ثمة اسمان متقابلان وبينهما خط واصل غير أن نهايته بدت متقطعةً بل ذاوية، كان الجبران يسير بأصابعه الهوينى لكنه سرعان ما تمرّغت سحنته بالفزع حال وصوله إلى موضع انتهاء الخطين، تأمل نوزاد ملامحه التي تعلل صمتها على الرغم من ادخارها سيلاً من الكلمات، على الفور أخرج الجبران من جيبه قلماً وراح يعيّن بلون غامق ما بهت من الخط وكأنه لحق أحداً بالرمق الأخير

- "إنه الصوت أيها الفنان" يقول نوزاد.

رفع الجبران رأسه وراح يحدّق به، اغرورقت عيناه بالدمع عند تثبيت مسار الخط بصورة جيدة، أحس نوزاد ثمة من يعيش في داخله ويحيطه بالتفاصيل جميعها، كرر الجملة مرة أخرى لكن بصورة مختلفة:

- إنهم معك يا حميد، أليس كذلك؟

لم يجد جواباً حينها، فقد انشغل بتثبيت سمة الخط بالرواح والمجيء بصورة واضحة ومتصلة لا وجود لأيّ فراغ بينهما، كانت ارتساماته بهية، هكذا شعر نوزاد حال التمعّن به، علّه وجد الصوت الذي يعي مدخلاته، أعاد عليه السؤال بصيغة بدا فيها وكأنه موقنٌ من وجودهما في وعيه:

- أنا متأكد أنهم موجودون يا حميد.

كانت نظراته مترددة بعض الشيء، لكنه اجتاز حاجز الخشية مبادراً بإعطائه الورقة ليتجه بعدها إلى دور الإيواء، غير أن ملامحه كانت أكثر هدنة، وتصرفه مؤهلاً للمكاشفة، ابتهج نوزاد مستشعراً إثارة ما يكنّه هذا الرجل، وراح يحث الخطى للمسير معه، وصلا معاً، اتجه الجبران نحو الأوراق المعلقة ليرفعها من الجدران، جمعها من دون عناية سحب ورقة بيضاء من على سطح المنضدة ليكتب عليها "أنهم موجودون" وبادر بتخطيطات أحسبها لوجه مبتسم، ترك نوزاد الجبران بعد أن شاهده منهمكا، ليتهادى بهدوء، أحسَّ أن وعيه لا يعاني من شيء على الرغم من التقارير التي وصلت إليه، لكنه كان حائراً في طريقة التعاطي مع من يحب ورؤيته المتأرجحة لحقيقة تواجدهم، كانت اللوعة التي تجتاحه كونه بلا

صوت على الرغم من كم الترددات المعلقة في دماغه والتي لا يستطيع تمريرها إلينا، فقد احتلت مخيلته صور عائلته أو أنينهم، فلم يكن يستطلع هيئته الآخر أو ليس بمقدوره أن يستوعب وجوده كمادة شاهدة للعيان، لكن هل أنه واع لفقدان صوته وامّحاء سيطرته على النطق؟ وهل أن الصوت السمة الأسمى التي تبرهن على وجود الإنسان؟ وإن كان كذلك لماذا لا يعي تواجد المحيطين به بدلالة الطاقة الموجية الخارجة منهم؟ هل تصله حقاً أم أغلق ذهنه ولم يعد يتسع لمن حوله؟ هل يسمع أصواتهم بالفعل؟ وهل هذه حقيقة أيامنا القادمة بأن نحيا عن طريق الصوت؟ خرج نوزاد من المكان وراح يطالع المكان جيداً هاماً باحتساب الترددات السابحة في الفراغ متماهياً مع السكون الذي يضمر كماً مهولاً من انحسارات البشر واحتجاجاتهم بل حتى أكاذيبهم، كانت ارهاصاته عظيمة باتجاه حقيقة الإنسان على هذه الأرض، على نحو آخر أعطت وكالة (الرؤية) زمن انفجار القمر الصناعي نسرين، وهذا إعلان عن فاعلية الجهاز ومدى إيفاء غرضه للعالم، كانت الشعبة الصوتية للعلوم التكنولوجيا فرحة بشأن براءة الاختراع وقد صرّحت أن الناقلات البحرية والمركبات الفضائية المخفية عبر الأزمنة الغابرة قد

خبرها الجهاز، سرح نوزاد في مخيلته متسائلاً عن مدى حيازة تردد الكائن البشري من هذا الجهاز وكيف نوعز بأننا سنجربه فعلا، جرت مباحثات في المركز كان نوزاد طرفاً منها حول إضافة إحداثيات الترددات البشرية للعقل البرمجي للجهاز، الغريب أن الدكتورة الورد كتبت مقالاً كان عنوانه مختلفاً بعض الشيء، "ستتضح حقيقتكم" وكأنها تنوّه إلى شيء غامض تعرفه لكنها لا تستطيع البوح به.

واصل الجهاز بإعطاء تقريرٍ وافٍ حول واقع أصوات الآلات المكتسبة ليعرضها على قناة الدولة الرسمية، عقد نوزاد الذهاب إلى مرصد الإدلاء التكنولوجي، كان جاهزاً ليناقش صديقه الدكتور أفال ومن معه بخصوص أضافة مساحة الترددات الموجية للإنسان غير أنه لم يرَ أحداً منهم، أبلغته السكرتيرة بأنهم في شعبة التحقيق الموجي، أراد أن يلتقيهم حول هذا المضمون، لحظتها انتابته نوبة من الدوار، جلس بروية، شَعَر أنه بحاجة ماسة إلى النوم، بالكاد قام من مكانه عازماً الذهاب إلى المنزل، ثمة غمامة رمادية -علّها تكون هكذا- يسمع لها طنيناً تخطف بين لحظة وأخرى من أمام عينيه، أحسَّ أن هاجساً يلاحقه أو شيئاً يلتفُ حوله من غير أن يمسك بتلابيبه،

تثاقل جسده، لتسحبه غفوةٌ نحو رؤية غريبة بعض الشيء، أغلب الظن -يقول نوزاد- أن موجة صوتية تقتفي أثري، لم تشِ هيأتها إلى شيء معين ولا أستطيع أن أنسبها لأحد ما، موجة بلا ملامح -هل ثمة سمة عينية للصوت، لعلها متفاوتة في قرارها المتراوح بين لحظة وأخرى:

- أتركْ أصواتنا سائبة، لعلها تفي حق وجودنا، أتركها يا سيد.

لا أتذكر ما قلته تحديدا، فقد تبددت وخفتت تاركة وراءَها وقعاً يعلل أثرها، غير أن فحواها بقي في ذهني لأنتفض من نومي بالحال، نظرت إلى الماحول بصورة عبثية، صرتُ ألوّح يميناً وشمالاً وكأني أطرد ما عني به الحلم من ترّهات، استعدتُ ثباتي بعد أن نهضتُ على أمل أن أعاود الجبران، لم أكن أنوي مزاورته في حينها، لكن قصدت ذلك لأطّلع على آخر التطورات، ترددتُ في سري عن أحداث الحلم الغريب متسائلاً: "هل هو تنبيه مقصود، أم فطرة جاءتني نتيجة الانهماك في مقدّرات الصوت والصورة التي عنيت بهما؟"، لتأتي إشارة صوتية التزمت مسامعي من جميع الاتجاهات:

- نعم أنا حقيقة، أترك الموضوع يا سيد.

توقفتُ معايناً صورة الفراغ الدائرة، عمدتُ إلى تحريك يديّ باتجاهات مختلفة، خشيتُ وكأن ذهني مكشوفٌ من أحدٍ لا علم لي بنواياه، من هو؟ وكيف يكون قوامه؟ تسمّرتُ لحظتها، أحسستُ أن خيطاً يربطني بين الحقيقة والوهم على الرغم من امتلاكي الأهلية لأعيّن ما أنا عليه، أدرتُ وجهي إلى الخلف من دون أن أعي اتجاه الصوت، ليس ثمة ما يدعو للبحث والمماطلة، شعرتُ أن الفراغ يرتدي أحجية لينفث سرّه بهذه الشاكلة، عدلتُ عن أمري عازماً المضي إلى حيث ما أريد ومتجاوباً مع ما أقول: "لعلها بقايا الحلم الذي ما زال طازجاً في ذهني ليستحيل إلى جمل صوتية عابرة ألقتها مخيلتي عبثاً"، سرتُ على مهل نحو مكان الجبران، صرتُ أتطلع من دون بوصلة معينة، مفتشاً في الفراغ عن ماهية الصوت الذي طالعني، دخلتُ إلى المجمع لتعاد علي الإجابة نفسها:

- نعم أنا حقيقة يا سيد، لا تبحث عني بمسارٍ معينٍ، أنا سائبةٌ كحال الكثيرات ممن احتضنهنَّ الفراغ، الصوت الذي يأتيك باتجاهات مختلفة هذا أنا، غير أن ارتدادي بسبب الريح والضغط الجوي جعلني أتخبط بهذه الصورة، فلا أملك قدرة على أن أمسك جنبة معينة، لكني

أعي جيداً تواجدي ولو على بعد ملايين الكيلو مترات، لعل الريح هي الوسيط في ذلك.

- من؟ قلتها وأنا متسمرٌ في مكاني، عبثاً خرجت مني بأن استفهم من الفراغ، كنت هلعاً جداً.

- أنا موجة صوتية عابرة أدور في هذه الفجاج، تعلقتُ بك في شعبة التحقيق الموجي وخبرتُ نواياك التي تمتمتَ بها، كنتَ تلهجُ بالجهاز الذي على أمل أن يستقرئ الترددات الصادرة من الكائن البشري.

- هل ممكن رؤيتك -يقول نوزاد-.

- وهل شهدتَ رؤية صوت ما؟

تأمل نوزاد فيما تقول معاوداً دورانه حول نفسه من دون أن يتفرد بملامح الصوت الذي تبعه.

- هل حقا ما تقولين؟ تلاحقك موجة صوتية ونحن في هذا العالم المكشوف بتفاصيله.

- ما الذي يدور في ذهنك؟

- موجة عابرة، ممن؟ ذكر أم أنثى؟

- وهل يهمك هذا؟

سكتُ ولم أبادر بشيء

- أنا موجةٌ ترددية تصدرُ من سيدة تدعى (خواتيم)، انقطع جسدها عن العالم المادي قبل سنتين بسبب

عارض صحي غير أنها لم تمتْ، تسللتُ منها بعد هذه القطيعة بينما بقي عقلها متعافياً بالأسئلة، لتخرج منها جملٌ صوتية دائرة في هذا المتسع محلقة بين أرجائهِ، تبعتك منذُ مرافقتك للجبران فقد أوكلت له اهتماماً شديداً فضلاً عن إصرارك على حيازة الأصوات البشرية المتحررة

- وكيف لك أن تصرّحي بهذه الطريقة؟ هل ثمة مَن يدير زمام الصوت؟. أنتِ تتحدثين وكأن روحاً واعية تتصرف فيما بيننا لتختار لها الأمثل من هذه الحياة.

- قلت لك، أنا الصوت الذي يصدر من السيدة خواتيم، أنا الوسيلة التي تعبّر عن داخلها، فقد التزمتْ نواياها فكرتك التي تدعو إليها، مشدودة بكثيرٍ من العبارات التي خرجتْ منك، لأصلك بهذه الصورة، أنا وعيها الخافت يا سيد.

- وهل هناك اعتبارات للصوت؟ أنا لا أعي ما تقولين

- ولماذا تشغلك الأصوات الماكثة في الفراغ، وما الجبران إلا صوت أو أصوات متداخلة في ذهنه.

- هل أنتِ لوحدك؟

- سؤالك أتى بغير محله، كيف لك أن تسأل هذا السؤال وأنتَ العالِم في هذا الشأن، هناك عدد لا يحصى من الموجات الصوتية الواعية والمستقرة في هذا المجال.

- ماذا تعني بالواعية؟

- أن يكون صاحبها حيٌ، والمقدّر لها أن تتحدث وتناقش كما أنا، صورة مماثلة للشخص، أما الأخريات فأنها مجرد اهتزاز موجي نسمعه بوصفهِ جملاً عابرة ليس لها جديد بالمرة سوى ما تبقى من قديمها لعلها أثرٌ للموتى وطاقة تقطن في المدى فلن تصبح محل إثارة.

- لمَ تدعونني لترك الموضوع؟

- لأننا سنموت.

ارتعبت مما قالته ساعياً بأن أدرك حقيقة ما سمعت مردداً لمَ لمرات عديدة من دون أن أفهرس كنّه المفردة وغرضها، بل السبب الذي عني به الموت على الرغم من إيقاني بسماعها جيداً، غير أني بقيتُ متوددا نحو ترددات خفيفة غير مجدية علها تشبع غايتي، لألتقي الجبران في مجمع الإيواء وكأنه أراد أن يكاشفني عما تعرّضت له قبل لحظات، كدتُ أن أتجاهله لكني تسمّرت نحوه برهة، شعرتُ للمرة الأولى أنه أبصر حقيقة تواجدي، هكذا شعرت، انتابني الخوف لحظتها، أمسكتُ مرفقه

بهدوء، تضافرتْ يدي بيده لنمشي بخطوات وئيدة على أمل أن نخرج من المجمع، كانت رزمة الأوراق ومساطر الأقلام في حقيبته، أمهلته للتوقف، تيقنت أنه كان مستعداً للذهاب إلى أنقاض منزله، كنت أتفحص ملامحه، كانت بهية باتجاهي، أحسستُ أن شيئاً غريباً علّم عليه ليصبح أكثر استيعاباً من ذي قبل، سرتُ معه حيث موقع دكته، استتب في جلسته، أخرج ورقة وقلماً، أعطى رسماً بسيطاً لأسمين صريحين في بداية الورقة، سارين ونيفرو، وراح يمدّ قلمه من موضع انتهاء الاسم بخطٍ متعرجٍ على سطح الورقة وكأنه وثّق لشيء معلوم في مدونته، أخذت القلم منه لأكتب:

"وحده الصوت الذي يؤرقك يا حميد، أليس كذلك؟ ستبلغ مسعاك أيها الموجوع".

أمعن النظر إليّ، كانت أماراته موقنة من شيء معين لتتضح عبر الجملة التي كتبتها، علّه أدرك أحداً في هذا العالم يعرف غايته، أمسك الورقة بعد أن طالعني جيداً، ظل يتناوب على مشاهدته لي مرات عديدة، متأملاً ما كتبته، التمعت عيناه بقليل من الضوء والدمع، دارَ رأسه على التفاف قوامه وكأنه يهب أمارة لأحدهم، شعرت أنه قد هنئ، ليهمَّ بالمغادرة من دون اتجاه معين.

لـم تصـلني أيـة جمـلٍ صـوتية مـن التـي تُـدعى الموجـة الترددية، كـان الفـراغ يمثـل هاجسـاً صـاخبا يُنبـؤني بمـن يلاحقنـي، أو كأنـه كـذلك، أدركـتُ أن المسـاحة التـي تحيطني -وإن كانت مجردة من الكائن البشري- غير أنها محتدمة بترددات عظيمة لا علـم لـي بإفادتها، طالعتُ من حـولي، صـرت أتسـاءل فـي داخلـي مـن دون أن أنطـق بتشـكيل الحـرف وتنغيمـه ليقينـي أن الصـمت لا يعطـي إيقاعاً ليدخر طاقة في الفراغ، لكنٍ مهلاً، ما معنى الفراغ؟ وكيف تكون سماته إن كان معبأً بترددات موجية؟ وهل أن معيار الفراغ المادة الحية المتحركة الشاهدة للعيان؟ وهـل ثمـة فـراغٌ فعلـيٌ فـي هـذا الكـون إن كانـت الرؤيـة الحقيقـة تـؤمن بـأن الأصـوات البشـرية تـدور مـن دون أن تفنى؟ وكيف لنا أن نستحصل عليه؟ كان فكري مشتعلاً في هـذا الصـدد لكنـي لـم أنبس بحـرف واحـد، هـل هـو خـوف أم خشـية أم التصـديق المطلـق بهـذا الأمـر؟ هـل أن الموجة الصوتية للسيدة خواتيم حقيقة الصراع الـدائر بيني وبـين الفكـرة المنـاط تحقيقهـا؟ كنـتُ متخبطـاً فـي تمريـر ماهية الفناء الذي ينتهي به العالم على أنه واقعٌ لا مفر منه أبداً، لكن ما مدى صحة هـذا الفنـاء في حـال لـو استعدنا

الطاقة الصوتية المترامية في هذا النطاق غير المتناهي وصوبنا تواجده؟.

وصلتُ إلى البيت لم أتذكر الاتصال بالدكتور أفال حول إحداثيات تردد الأصوات البشرية المزمع إقرارها من ضمن إعدادات الجهاز، غير أن اتصالاً هاتفياً جاءني من سكرتير تحرير شؤون الطاقة الفيزيائية يدعوني إلى اجتماع طارئ، لم أعي ما الخطب لحظتها، حال ذهابي وجدتُ حضوراً وعناية بأغلب المعنيين بالشأن الفيزيائي، وبينهم أربعة أشخاص يجلسون على طاولة متفردة من الجهة اليمنى للطاولة العمومية ويتصدرون الاجتماع، انبرى بعدهم مسؤول شؤون الطاقة الصوتية الذي كان دقيقاً في حديثه ومختصرا غرض الموضوع:

"تقرر إدراج الترددات البشرية في الجهاز على وفق المقرر الصوتي المعني للكائن البشري، غير أنه مرتبطٌ بالموقع الجيولوجي للمكان الذي أصدر منه الصوت بمساحة محددة لا تتجاوز (١٠٠) متر وقد تحدد هذه المساحة على وفق الجي بي أس أو الرادار الجوي، لعل شرط المساحة يستبعد في قادم الأيام تبعا لتطور الجهاز".

استقر الرأي على أن لا يشاع هذا الأمر لأسباب مهنية، بعد يومين أدخلونا في غرفة التصويب الترددي لتحديد

بعض الأصوات لتكون النتيجة صحيحة على الأغلب، قمنا بإجراء تجارب سمعية بمساحات معينة ليلتقطها الجهاز بالحال، كنت سعيداً لأجل الجبران على أمل أن أعيد تدوير الجهاز باتجاه أماكن ترتادها عائلته ليدرك أنهم على قيد الحياة، مصراً على أن أزيل موقع الزلزال من مخيلته وحمولته التي أحدثت شرخاً عظيماً في هاجسه، مانحاً لذهنه ترددات موجية حية تفي حق وجوده بدلاً من جمل الأنين الموجعة التي أحاطته، شعرتُ بالبهجة من أجل الإنسان في هذا العالم الآمل بوجود أحبته علّه يقلل من مَغَبَّة الفقد ويبدد معناها، خرجتُ من المركز لكي ألتقي الجبران، غير أنّي صعقتُ بمجموعة من رجال الشرطة وسيارة إسعاف قريبة من حجرته، تَحَرّيتُ عن السبب، أبلغني رجل الأمن أن حارس المجمّع شاهد باب حجرته مفتوحاً وهو منطرحٌ على أريكة من دون حراك، مات في مكانه، دخلت إلى الحجرة تفاجأت من أن جميع الأوراق المعلقة على الجدران بيضاء وفارغة تماماً، أمعنت النظر فيها كانت خالية من أي خطوط متعرجة بل حتى الاسمين الموضوعين على طرفي الورقة لم يعودا موجدين، بعد موته بيومٍ واحد أعلنت فرقة الإنقاذ عن انتشال عائلته من

تحت الأنقاض، تحسرت في سري، أواه أيها الجبران، كم كنت وفياً لعائلتك، كم عظيمة هي الحقيقة ومميتة ايضاً، لعلك أدركت ذلك قبلنا كلنا، أحسستُ أن الأوراق تحيطني من جميع الاتجاهات، أوراق أو أنين نافذ يتقاذف رجعه في ذهني، اجتاحتني نوبة غريبة بالفناء، كيف لأحد أن يشعر بالفناء؟ غير أن أصواتاً تقمصتني وكأني في حلقة محكمة الإغلاق، أصواتٌ تأتي من هنا وهناك "أترك الموضوع"، شعرتُ أني محاطٌ بقيد مميت اسمه الصوت، عدوت من الحجرة وكأني شارد من مخاض كبير، صرتُ أهذي في الفراغ أو أبحث عن فراغ يمثلني علّني أجد مكاناً يتسع لخصوصيتي، أصوات تتكرر بجملة واحدة بيد أن موجة السيدة خواتيم وحدها التي علقت في مسامعي:

- أترك الحقيقة سائبة.

- أيّة حقيقة؟

ترهلتْ ترددتها بفعل الهواء إلى أن اختفت، سارعتُ للذهاب إلى المنزل، أحسست أن الأفق يتدحرج من أمامي، اضطجعت على السرير، خشيتُ من معاودتها، فتحتُ التلفاز ساعياً بأن أبدد صوتها بصوت آخر لكن سرعان ما تراجعتُ عن فكرتي لأهدأ قليلاً وأنام، في

اليوم التالي استدعينا من قبل المركز البحثي لإعلان إدراك الأصوات الغائبة واحتواء ترددداتها، كانت نسخ الإصدار الجديد تستقطب الطاقة الصوتية منذُ نشأة الخليقة مروراً للقادم شريطة أن تفرض على المواطن تسجيل تردده في جهاز الكشف الصوتي التابع لمؤسسات دائرة العلوم والتكنولوجيا، ليَفتح له ملفاً مقيداً به التفاصيل التي تعنى بالصوت والصور، وهنا تكون جميع الجمل الموجية الصادرة منه مدخرة في الجهاز فيعرّف الإنسان عبر درجته الصوتية في حال لو دعي للمكاشفة، أما الأصوات الغابرة التي لم تسجل ترددات شخوصها بسبب موتهم فستكون مدخرة أيضاً لكن غير معيّنة أو مشخّصة لأحد على الرغم من كونها ضمن المساحة المزمع تواجدها في العقل البرمجي للجهاز أي من الحدود الترددية للكائن البشري، قد تكون صدمة لنا أن نعيد قراءة كثيرٍ من التعاليم والسنن التي سوّرت الإنسان وأحاطته بدائرة الوهم على أنها حقيقة مصدقة لا تقبل النقاش، الغريب في الأمر، وفي الأشهر الأولى لم يسجل الجهاز أعداداً كبيرة من الترددات الصوتية، صار عدد الأصوات البشرية يخفت تدريجاً إلى أن أصبحت اللغة المشاعة هي الإيماءة، سكن العالم وكأنه في

مصارحة حقيقية، هل هي الدراية أم الخشية من أن تتسلل جملة عابرة ليدخرها الجهاز؟ كان العالم صامتاً جداً على الرغم من صخبه السابق، صمت العالم لكن حقيقته مدونة في الجهاز، حقيقة الأصوات التي تبعوا مضامينها وسلّموا بها، تأملت ملياً في كلام الدكتورة الورد ساعياً أن استحوذ على فراغ، أبوح به ما أشاء بعيداً عن خارطة الجهاز واستقراءاته.

حجرةَ المرايا

على مدى حقبٍ متعاقبة لم يشعر متريانو بالراحة من دون الرجوع إلى حجرته الأثيرة التي عمّدها بالمرايا متخذاً مساراً ملغّزاً في حياته، يَحُدَّ نظره إلى الأمام بغية الوصول إلى ما فاته، يرى القادم بماضيهِ الغزير بالذكريات؛ ليبصر مستقبله بعينيه السائرتين إلى الخلف غير آبه بالسبب الذي دفعه لذلك. يتسلّل خلسةً من عمله بوصفه دليلاً لمتحف الفلاسفة، منوهاً لصديقهِ غراند أن يقضي أمراً معيناً في منزله ليدور في منتصف الحجرة، مادأً نظره الشاخص حيال المرآة، لكنه يعي جيداً أنه يفهرس ما فارقه، وانفصل عنه ليستقل حاجته ملخصاً ما يريده بالتطلع ملياً نحو جوانب الحجرة، على الرغم من كونه لا يشعر من أن ثمة وجهةً معينة يقصدها، مكان بلا زوايا، فقد بانت الحجرة كروية -هكذا تبدو- تظهر وجهه الحلزوني المتقلص، وانطواء نصفه النحيف مع ضمور ساقيه الذابلتين لكنه يستقرئ ما تستكشفه عيناه، فلا ينفك من طقسه هذا إلا بسماع همهمات ابنته الخرساء

جوتفريت، مستوحشاً تأخرها عن القدوم، كانت تنظر له وترمق الساعة الجدارية بتوجس، يربت على كتفها مبتسماً لها ابتسامته الحانية محركاً شفتيه برفق(أبا أبا)، متماهياً مع طلتها ليصطحبها إلى الفراش ويرجع بعد ذلك إلى عمله، وكأنه يقضي فرضاً مهماً من دون حجج يسوقها للآخر لكنه يتلبسه فعلٌ حياتيٌ ومراسٌ دائم، بيد أنّه يؤرخ لهذا الأوان بكتابةِ ورقة يذكر فيها تفاصيل اليوم جميعها، ويدسها في صندوقٍ خشبي لا أحد يعرف غايته، لربما جوتفريت تعلم ذلك بحسب الداعي الذي يخص والدها فقط وليس العبرة من مضمونه وما يترتب عليه من غرض، هذا ما ذكره في الورقة الأولى بوصفه نوعاً من الالتزام النفسي الذي يعيه، مستشعراً وجوده من خلالها، لكنه كان يدرك تماماً أن ابنته لا تسأله، قد تترك له شيئاً من النظرات المستفهمة معللةً الغرابة فيما تراه.

بيت متريانو بلا صوت، لعل لغة الإشارة المهزوزة، ودور ملامح الوجه كفيلتان بتغطية اليوم ليعطيان أمارة عما يجري. هكذا يكون الطابع المعيش وقتها، إذ كانت جوتفريت مرتبطة ارتباطاً كلياً بوالدها ولاسيّما بعد وفاة أمها نافيكا بمرض الكانسر، لتصاب الفتاة الصغيرة بنوبة نفسية أفقدتها نطقها من شدة ما رأته من ذبول جسد

والدتها وتيبسه، فكان متريانو ذاتها المفكرة، فقد حرص على متابعتها بعد فقدان صوتها على الرغم من أن براند الطبيب المختص في علاجها طمأنه بعض الشيء بأن الفزع الذي طوقها جعلها بهذه الحالة، وقد يرجع صوتها تباعاً في حال لو اجتهدتَ أنت – يقول له- في خلق طقسٍ يخرجها من هذا الوضع والتزامها أيضاً بالعلاج. كانت مدرسة آميلان التي تبعد عن بيت متريانو مسافة الميل تضم المصابين بالصمم والبَكم، غير أن جوتفريت لم تواظب على ذلك كونها لا تحتاج إلى تمرين في جهاز النطق بقدر ما أن هناك باعثاً نفسياً يجبرها بأن تنحسر عن الكلام. يعي متريانو ذلك جيداً مع توصيات الطبيب الدائمة ومحاولاته الجادة في جعل ابنته الوحيدة تتماثل للعلاج أضحت كبيرة جداً. قد تكون الإيماءات بترجمتها الموحية غير كافية بتمرير تفاصيل اليوم، بيد أنّه كان يعبّر عن مدى فهمه للأشياء بصورة مختلفة. يمطُّ شفتيه وينود برأسه ويجري توسعة لنواجذه وفي أحايين كثيرة، ينطُّ هنا وهناك بطريقة مدعاة للبهجة إلاّ أنها كانت بارتساماتٍ باهتة لا تبدي أي مؤهل للجواب، يقول متريانو في مدونته التي يودعها في الصندوق:

أعلم ما كان يدور في داخل جوتفريت لأبدي معها كامل التعاطف، بل أشعر بما يتملّك خاطرها أيضاً، لعل هذا التخاطر صار حقيقة مطلقة تبعاً لوضوح الواعز الذي يكتنفها، وأن استبقت غرضها بتصرف عبثي راحت تمضي بخطوتين ونصف الخطوة نحو حجرة المرايا لتمسح أنظارها جيداً من دون أن تشير إلى ذلك. كان متريانو مهموماً بأبنته التي لا تضحك ومنشداً ومتصلاً بحجرة المرايا التي يعدّها للمثول لمراجعة حياته السالفة التي يستقر عندها.

لم يغب عن الكثيرين أن متحف الفلاسفة مصنوع من الشمع، يضم أغلب المشتغلين في حقل المعرفة، مع تعريف بسيط لهم يذيّل في الهامش. وقد احتفظ متريانو بسيرهم بحكم مراسه اليومي مع السائحين، كونه يشعر أن ثمة علاقة تربطه معهم غير رابطة العمل، وقد يحدّثهم ويجلس معهم يتحسس هيئتهم ممرراً يده صوب ملامحهم. وإن له عدد غير محسوب من الزائرين يفضي لهم الكثير من وقته، تستوقف غراند هذه الحالة فلا ينفك من المزاح حال رؤيته له وهو قبالة أحد التماثيل لمدة ليست بالقليلة غير أنّه يكف عن ذلك عندما يجده منهمكاً في تغيير وجهة أحد منهم وقوامه من باب كسر النمطية أو

لنيةٍ مبيّتة في داخله، ليلمحه وهو يدّون في ورقة بيضاء ولا يسأله عن أي غرض يدفعه لذلك، لعله يراه شيئاً طبيعياً على الرغم من أن متريانو لا يأبه لصاحبه المشدود له، يستأذن منه الذهاب إلى منزله متصلاً بحجرة المرايا ساعياً بأن لا يفرّط بوقته وكأنه استحوذ على ما يحفزه للإدلاء بشيء هام، يخرج منها مستوفياً حاجته بما يكتبه معززاً ذلك بورقة ونيف مقيداً إياها برقم محددٍ وتاريخ في أعلاها ليدفعها في الصندوق مع ما ذكره في عمله أيضاً من دون أن ينبس بحرف واحد، لكنه وفي أثناء خروجه من حجرته خيّل له أن جوتفريت تصرخ وتستغيث، ارتعد وارتدَّ من مكانه بالحال من دون أن يضع الأوراق في الصندوق، ما بين وضوح الصوت المواتي من حجرة ابنته ويقينه بأنها خرساء تسلل قربه ملمحٌ من الضوء كاد أن يأخذ مهجته لكنه قاومه، أراد أن يدرك هل كانت حقيقة أم ضرباً من الوهم، فلم يكن باستطاعته أن يفصل ذلك، فتح باب الحجرة، شاهد ابنته بكامل هدوئها لكنها كانت تقص شعرها بسرعة وكأنها تنافس إحداهن في ذلك، تقص وتجمعه في كيس أسود، لم تغير جلستها أو تعدل عن فعلتها حال رؤيتها لوالدها، كانت تتلمس فروة رأسها بعناية آملة أن لا تبقي منها شيئاً

وتنظر إلى صورة والدتها بعينين غائرتين كأنهما متاهة، تقدم متريانو نحوها كاد أن يضربها لولا أن وميض الضوء صار سخياً باعثاً رهبة خفيفة عنده، تراجع من دون أن يشعر، انجرّت عيناه نحو الفراغ باحثة واللوعة التي خلّفها الضوء، أخذ يفتش عنه بين أركان المنزل وزواياه، أحسَّ أن شيئاً ما يسحبه ليدخله حجرة المرايا، طالع الما حول بخشية، كان متشابهاً وساكناً في آن، تفرّس وجهه جيداً، صار لا يرى الذي خلفه من شدة الضوء المنبعث، تلبّك وأخذه الغثيان، لم يكن بمقدوره أن يلتفت غير أنّه أمسك بقواه البائدة بعض الشيء، أسهم النظر نحو المرآة مع الملاحظ أن سعة الضوء تقلّصت بل أصبحت باهتة، ليتضح قوامه بصورة تكاد تكون مقبولة، استدار إلى الجهة المقابلة من باب الحجرة ليتأكد من أن مظهره الخلفي كان على ما يرام، صمت برهة، انحاز نحو السبب الذي جعله ينظر القادم بمرآة الأمس غير أنّه تمادى بخطوات ضاجة نحو ابنته التي شاهدها بشعرها الطويل وبالهاجس نفسه والملامح الباردة، جلس على مقربة منها يحرك شفتيه (أبا أبا) صار يمسّد شعرها بعناية فائقة متحسساً بيده وجهها مكرراً (أبا أبا) فلم يجدها منجذبة نحوه، جلس قبالتها محاولاً أن يعي ما مر به، عبثاً أصرَّ

على استنطاق المكان باسترجاع كثير من التفاصيل التي لحقت به لكنه تذكر موعد الذهاب إلى المتحف، انزوى مدوناً ما رآه ليودعه في الصندوق، خرج من منزله وهو يفكر ملياً بالصوت الذي أتاه من جوتفريت وما شاهده من شعرها المقصوص مبينا حقيقته، حال دخوله إلى المتحف أحسَّ أن هاجساً قلقاً تقمصه وكأنه فقد شيئاً مهماً من دون أن يعرفه، تحفز للحديث مع رفيقه لكنه عدل عن ذلك، شعر أنه لا يعاني من أي خدش في ذهنه، عاود أصدقاءه الفلاسفة بالتتابع، قصد ذاكرته جيداً كانت منضبطة ومطلعة على مجريات العمل مستعيداً بعض ما تعرّض له في سالف الأيام، انتفض بصورة غريبة "شاهدته أقسم لكم شاهدته"، أحدث صوته ربكاً عظيماً في القاعة مما أثار دهشة المتواجدين فيها، سارع غراند بالحال:

- متريانو، هل أنت بخير؟

بدت هيأته مضطربة، توحي أنّه يريد إثبات أمراً هاماً على الرغم من حقيقته المتفاوتة والملتبسة، لكنه وحال رؤيتهِ لغراند تراخى قوامه المتشنج وراح يتمتم بكلمات تؤخذ بصيغة الاعتذار -لعلها هكذا- غير أن غراند لم يميزها لحظتها لكنه تفاجأ من استعادة ثباته واتزانه وكأن شيئاً لم يحصل، تهادى بخطواتٍ مماثلة نحو تماثيل

الشمع وراح يتحدث معهم من دون أن يأبه لأحد، تبعه غراند وكان يعاين التحول الغريب الذي صاحَبه:

- ما بك يا متريانو؟

- ما الذي حصل؟

انتبه غراند إلى ارتساماته، كانت لا تشي إلى أنّه يفتعل أمراً معيناً ليموّه أو ينسف الذي حصل على الرغم من جديته في التصريح، أمعنَ النظر إلى تحركاته ليعاود إكمال ما لديه من مهام بينما بقي متريانو مستمراً بالسجال مع التماثيل تباعاً وكأنهم يحدّثونه عن شيء مهم جداً، أراد غراند أن يستوعب السر الذي ألزم صاحبه لكنه أرجأ غايته تبعاً لترادف الأسئلة من أحد الزائرين، بيد أن عينيه ظلتا ترقبانه وإن كانتا منهمكتين في الشروحات المعنية حول ماهية المكان وما يخص أصحابه، كان غراند على علم بوفاة زوجة متريانو على الرغم من حداثة عمله في المتحف، حينها لم يبادر بمناقشته حول هذه الموضوعة إيماناً منه بعدم إثارة الحزن في داخله، غير أنّه لم يكن يعرف طبيعة حياته الدائرة وما يحيطها من أثر، لربما خبر غراند ذلك من خلال حديث متريانو وشغفه بقراءة الكتب التي تعنى بسير الراحلين من الفلاسفة على الرغم من كونه قليل المجاملة ومن الأمور التي حدّت من

تساؤل غراند حول التزامه تماثيل الشمع والتحدث إليهم هو انتظامه في سلوك معين يجبرك على إمساك نفسك معه والأخذ بعين الاعتبار المساحة المحددة للنقاش، غير أنه كان مواظباً بعمله ويسعى أن يكون ودوداً مع زائري المتحف، بعد وفاة زوجته ازداد اهتمامه بعمله والقراءة وجمع سير أصحاب المشاريع المعرفية وأصبحت هواية التنقيب عن صور المؤثرين منهم تشغل حيزاً مهماً من تفكيره لذلك أصرّ على تمجيد بيته بهم، كان يشعر أن ثمة حواراً مع ما أنتجوه ليملأ يومه بهم، يعلّق صور أثنين أو أكثر ممن اختلفوا في الطرح ويتوسط حديثهم، يشعر بتضارب رؤاهم وحسهم العالي، يتناول قهوته السوداء وسط احتدام متبنياتهم وزخمها مبادراً بفض الجدال - حسب تصوره- بابتسامة وتمتمات خفيفة تنحاز لوجوههم المعلقة، وفي غداة اليوم التالي يأتي إلى عمله محملاً بكثيرٍ من اجتراحات الأمس، يقف مع من يتصوره محطة لبقايا اليوم الفائت، يجادله على وفق ما طرحه، كان يحمل فلسفةً غريبة من نوعها مجملها أن يعيش ماضيه بجميع تقلباته ليرى غده ويخرج بمحصلة يجدها مثابة الشروع بيوم جديد، يحاول أن يمكث مستريحاً في قديمهِ إيماناً منه بعدم الوصول إلى مرحلة المرض

والشيخوخة أو أي شيء مدعاة للفقد، يدَّخر اللحظة السابقة نكاية بالقادم غير أنّه يكتب قادمة بشخوص أيامه السابقة، يكتب ويدس في الصندوق ساعياً أن يعطي للصوت السائب في منزله منزلة اليقين، يقضي كثيراً من وقته في متابعة الجديد من الصور واستشعار أجساد الذين رحلوا من خاصته تحديداً، يجلس مع زوجته في مكان استراحتهما، يعمل فنجانيْ قهوة مُحلياً إياها بالشوكولا الإنكليزي يضحك حال انزعاجها من صوت مواء القطط، لكنه سرعان ما يجد نفسه متواجداً في حجرة المرايا يدور فيها كالدرويش، يستقر في منتصفها معايناً ما وراءه بدقة، بعد انقضاء ما عليه يندهه جوتفريت محدقاً في صورتها آملاً أن تأتي لكن لا صوت يمتثل في الدار، غالباً ما كانت تقف عند حجرته ترمقه بنظرة لا تعبّر عن شيء، يترقب صوتها بل ملامحها التي تستفيق لترد عليه، يتماهى مع أنفاسها علّها تحاوره غير أن لا ملمحاً عابراً يفي غرضه أو يعطي دلالة على تواجدها، يستشعر متريانو أن واقعه الصوري وما ادّخره من أنفاس الراحلين يكفي لمتسع يقضيه في هذه الحياة، وإن سُئل عن جوتفريت يبتسم ويرد بأنها في غرفتها، الصدمة التي دفعت متريانو أن يعيش في هذا الملكوت حال رؤيته لزوجته وهي

تـذوي مـن دون أن يقـدر علـى مسـاعدتها فقـد تلاشـت بصـورة مريعـة، أحـدث أنينهـا ارتباكـاً فظيعـاً داخـل متريـانو فما زال يلاحقه الصوت لكنه استعاد حياته مرة ثانية من خلال ابنته غير أنها وبعد فترة وجيزة أصيبت بعجزٍ كلوي وتوفيت، لم يستطع متريانو أن يخفي حزنه غير أنّه تظاهر بالصـلابة، بقـي لمـدة ليسـت بالقليلـة منقطعـاً عـن العـالم الخـارجي ومكرسـاً جـل اهتمامـه بـالقراءة وتصـويب اللوحـات النـادرة غيـر مسـتوعب النكبـات المتواليـة، كـان يتأمل كثيراً عن الجدوى المعنية للفقد، غير أنّه استطاع أن يخرج من محنته ويزاول يومه بصورة حسنةٍ، أسقط عن نفسه كثيراً من التفاصيل التي تعرّي هاجسه أمام المجتمع فقد أوكل لشخصه ثقة أن تكون ثمة علاقة روحية مع من فقـد، يلتفـت إلـى جزئيـاتهم الدقيقـة، يـأتلف إلـى الأمكنـة التـي ارتادوهـا، كـان يستشـعر خطـاهم ومواعيـد نـومهم يحـتفظ بحاجيـاتهم والكثيـر مـن نقاشـاتهم، يعـيش الـدور الـذي يجعلـه مسـتقراً، لكـن تصـدع جـزءٌ مـن الجانـب العاطفي له من جراء ما لحق به جعله متفاوتاً في كيفية أمساك أوانه، بيد أنّه حال بروده يلتزم ركناً قصياً من أية مسـاحة فارغـة ويصـرخ مـن دون أن يتقيـد بكلمـةٍ معينـة لـذلك كـان متعافيـاً باتخـاذ عزلته على الـرغم مـن انشـطار

رؤاه، لم يدرك أنه يتقمص هذين الدورين في آن واحد، لعل جزءاً كبيراً منه يبقى مسوراً بالقديم من أيامه ليرى أفراد عائلته فيخلص لهذا العالم وإن انفصل عنه يعاود الصراخ ويتفاجأ بالصور التي ملأت زوايا المنزل وأركانه وعن حجرة المرايا أيضاً، وقد يثور ويصيح في حال لو تغيرت تفصيلة معينة وكأنها إنذار يقتص من جوهره فيشاهد نفسه غريباً في عالم معبئ بتفاصيل كثيرة، يتوسط كونه الأخر، يدرك تماماً أن ثمة مغايرة في حياته تحفّزه على السؤال، يحاول أن يمرر بعضاً منها بصورة غير مباشرة حال تلقيه رسائل في جهاز الهاتف المنزلي، ليرى أن هناك أسئلة مهمة كان قد أهملها إمعاناً لمثوله في دنيا المرايا والصور المعلقة، يتقصى أثراً لا يعي أنّه أثره الآخر، منكباً على ملامح زوجته وابنته المتوفيتين، فيبدو متأثراً بل هاماً بتواجده وما يصاحبه من مستجدات، غير أن ارتسامات المكان الجديدة تمهل من إثارة نوبته وكأنه ينقّب عن نظامه في هذا المكان، يخرج تاركاً رسائل صوتية للذين عاودوه باتصالاتهم ليخبرهم بحالته المطمئنة لكنه يشعر أن جملهم بدت حانيةً متخبطة في نغمتها وكأنها تحاول مواساته لإصابته بداءٍ معين، يتأمل في جملهم ملياً، يسعى أن يستفسر منهم عن حاله لكنه

يتردد في ذلك، يحاول أن يتماهى مع واقعه، يدرك تماماً أن الصور المعلقة تعود لفلاسفة لطالما انحاز إلى يومياتهم ومداهم السائر لكنه لا يعرف متى جمع هذه الصور وعلقها على الجدران، يريد أن يتصل بأحد من أقاربه أو أصدقائه طالباً أن يعرف شيئاً عن شأنه بما لا يعرفه هو، لكنه يرجئ ذلك، غير أنّه يترك رسالة خجولة مفادها" أنا بخير يا سادة، أعيش وحدتي بسعادة، عافيتي على ما يرام، نومي جيد نسبياً، أدخن ليلاً قليلاً من السجائر غير أني أحاول إجراء تعديلات على منزلي، كأن يكون بفتح حجرة جوتفريت على صالة الضيوف آملاً بتكييف الفراغ الحاصل وإدراجه من ضمن حجرة كبيرة تكون فيها مكتبة عامرة لربما أضع ساعةً جدارية مميزة أو بعضاً من اللوحات التشكيلية، ما زلت دائباً على اقتناء النادر من الصور، أعشق هذه الهواية". كانت كلماته محاولة لاستنطاق الحديث معهم ومعادلته مع ما سوّره من تيه، يجلس عند الهاتف على أمل أن تنجده رسالة من أحدهم، متريانو الذي يبحث عن سبب لكثير من الأمور التي وجدها في بيته، ينقّب عن ذاته الثانية -لعله ينقّب عن ذاته الثانية- يريد أن يقول بأن له مداراً آخر يجول في كنهه لكنه يتراجع عن هذا الهاجس حال رؤيته علب

الدواء الكثيرة التابعة لزوجته الراحلة، يدرك ما فقده تماماً غير أنه يتمتم في سره "من الذي أتى بهذه الصور إلى منزلي"، سار بتؤدة غير متفق عليها، فطن إلى أن ثمة صندوقاً بجانب حجرة المرايا، تفحصه جيداً عسى أن يتذكره غير أنّه عدل عن وجهته باتجاه الحجرة، فتح الباب برفق، استدار إلى الجوانب جميعها كان يرى صورته وما اتسعت أنظاره للمكان، لم يتوقف كثيراً عند هذه الغاية بقدر ما استفاق على ما هو جديد وغريب في آن، التاع من هذه الحجرة الغريبة، خرج معايناً الصندوق، فتحه بالحال لتنهال مجموعة من الأوراق المرقّمة بعدد وتاريخ كتابتها، لاحظ ذلك حال فهرستها ليرى تنظيمها بخط واضح، استكان وراح يطالع الورقة الأولى، كان يتفحص تشكيل الحرف ومعماريته، تيقن أنّه خطه، لم يسعَ لمعرفة كتابتها، تيقن أن هناك شيئاً غريباً حصل له، كانت الورقة الأولى تشير إلى يومه الأول في عالم استوطنه، هكذا شعر متريانو بأن له عالمين محملين بالكثير، لكن كيف له أن يقتنع بأنه مصابٌ بشيء ذهني، ومن أين له أن يعثر على عالمهِ الحقيقي؟ وهل أنه فعلاً يعاني من علةٍ نفسيةٍ تحتّم عليه هذا الصراع؟، مرَّ على عجالةٍ إزاء هذه الأفكار المتضاربة غير أنها ما زالت

تحيطه، التجأ إلى حفنة الأوراق، التقط الورقة الأولى، واحدة لا غير، سكت برهة معايناً المكان بعين باحثة، ثمة هاجسٌ يحفزه بأن يكون لوحده لا أحد سواه، هاجسٌ حسيٌ يدركه عن طريق استقرار حالته ورجوعه إلى وعيه ليمتثل إليه، متجاوباً مع ما يمدّه من هزاتٍ نفسية تستقرئُ حاجته لاستقبال الحقيقة كما هي، قرأ عنوانها "متريانو وعائلته مرقونة بالرقم واحد"، بدأ بها: "أرى وجوه من أحب، أيقن من ذلك، أسمع إيقاع زوجتي الرتيب، زوجتي التي لا تجيد صنع القهوة وتضجر من مواء القطط، وأيضا، جوتفريت ابنتي التي تأتلق بتنضيد الزهور"، ويستمر، يقرأ الثانية ويتبعها بالثالثة كانت سيرة لرجل مهزوم من واقعه يحاول أن يؤثث واقعاً متزناً يشعر عبره بالطمأنينة، يكتب متريانو: أشعر بلذة حال ارتياد متحف الفلاسفة، كانت أرواحهم معي، تسكنني، ارتأيت أن أصنّفهم بصورٍ مرسومة أو بلوحات جدارية مائزة ليكونوا أصدقائي الخلّص، فلا ينتابني السأم أبداً، ويمضي برحلته، لكني أمتعض من اتصالات الآخرين، كانوا يسألونني عن صحتي بشراهة وكأني أشكو من مرض معين، قد يلزمني الدوار في أحايين متفاوتة فتبادر زوجتي بصنع عصير الكرز لأبدو على ما يرام، انتهى من قراءة

الأوراق ممتحناً في كثير مما دوّنه، أخذته نوبة الدوار، تفحّص المكان جيداً، لم يجد أحداً، تيقّن أنّه ليس على ما يرام، عبثاً قام من مكانه من دون أن يفكر عن أي مسار يصطفيه، جمع اليوميات وأرجعها إلى مكانها، فهرس عدد الرسائل التي وصلته عبر الهاتف، أراد أن يعي مكانه الحالي بإعطاء أمارة لعالمه الآني من دون أن يتفاجأ حال انسحابه إليه أو أن يصيغ وجهاً تقريرياً لحياته الثانية، فكثير من الرسائل تسأله عن صحته بعد موت ابنته غير أن رسالة غريبة وصلته من صديقته ميرنا ترجوه بمتابعة صحته، ميرنا صاحبة محل الأنتيكات والتحفيات التي يتبضع منها صور أصدقائه الفلاسفة، اكتشفتْ مرضه مبكراً من خلال الحديث معه ومكاشفته بأمور تفي حق التوقف عندها، غير أنها اعتبرتها في حينها هنات عابرة من جراء الصدمة، حصل وأن زارته ذات مرة في منزله بعد وفاة جوتفريت بمدةٍ طويلة على أمل إخراجه من حالة الحزن والذهاب معه إلى سينما لوفر لمشاهدة إحدى أفلام ولسن نابيوف، فتح الباب مبادراً بالترحيب بصورةٍ تقليدية، هل جنابكِ صديقة زوجتي؟، انصدمت ميرنا أول الأمر لكنها سايرته إلى أن دخلت، كانت ملامحه غير دالة على أنه يعرفني -تقول ميرنا- بل لم

تظهر عليه أية سمة تبشّر بذلك، صارت نظرته تجهلني تماماً، أخبرها بأنها ستأتيك بالحال وأستأذنها بالدخول إلى حجرته، انتظرت ميرنا لدقائق عديدة لم يظهر أحد، ندهت، متريانو أين أنت؟، أين زوجتك؟، أتى بالحال وكان ينظر باتجاهين مختلفين وكأن هناك من يجالسها، أين زوجتك؟، سألته بترقب، إنها معك وأشار إلى مقعد فارغ، لكنه انحسر وتغيرت سحنته وكأنه أصيب باعتلال يشوبه تورم حاد في عضلات الوجه، حال إعادة السؤال عليه تبددت سماته وتراخت قواه مستحضرة متريانو الذي تعرفه، متريانو الجاد باقتناء الصور ومعاينة التحف الثمينة، تراجع إلى الوراء وابتهج حال رؤيته لها، دنا باتجاهها بضع خطوات، الغريب أنّه لم يسألها عن كيفية دخولها المنزل وما السبب الذي أتى بها إلى هنا، انّمحت تفاصيله الآنية ونبتت غيرها أكثر معرفة لميرنا، لا علم لها أين كانت مدّخرة؟ مستعيداً موعده السابق منسجماً حيال اللحظة التي أبدى عبرها كامل الفرح، وقد تبعته مواقف تترى أدركتْ عن طريقها أن صديقها يعاني من مرض ذهني، لكن كيف لها أن تصارحه بالحقيقة، الغريب أن ثمة مستجدات في حياته توافدت من دون أن يعي غرضها، لطالما كان يصارح ميرنا بذلك غير أنّها لم تكن

مستعدة لمواجهته بل لم ترغب أن تضعه في دائرة الشك على الرغم من قلقها وحرصها الدائمين، كانت تشعر بأنها مسؤولة عنه بعد فقدان عائلته، لكنها وهبت له بعض الإشارات بمراجعة طبيب الأعصاب بينما بقي هو منفلتاً عن هذه الدائرة، ذات مرة أرسل لها رسالة يسألها:

- ميرنا، هل أنا مريض؟

عاودتْ رسالته بالنفي، كانتْ جملها الضاحكة تجدي نفعاً حيال الشعور الذي ينتابه، اعتقدتْ ذلك، غير أنّها أحسّت بأمور قد تعرّضه للخطر، ترتاده النوبة لتبقى ملازمةً له ليوم ونصف اليوم، لذا أصرّت أن تترك له أثراً في جهاز الهاتف، أعاد متريانو جملة صديقته لمرات عديدة، كان مبتئساً من مهاتفتها، بل من التواصل مع الآخر، أراد أن يستدل على ذاته المتأرجحة من دون عونٍ أو سندٍ من أحد غير أنّه ترك لها رسالةً تطمئنها "أنا بخير يا ميرنا كوني بسلام"، همَّ بأن يعطي مزيةً تمكّنه من إمساكه بالعالم الذي يوجدُ فيه، قرر أن يضع صندوقاً خشبياً ثانياً يكتب ما تعرّض له بوصفه إشارة تجدي إلى عدم الضجر من محنة السؤال حال تحوله من عالمٍ إلى آخر، هيأ الصندوق ورصفه مع الأول وعرّفة بـ"عالمي الثاني"، باشر متريانو بكتابة أولى الأوراق مدوناً تحركاته

واندهاشه من حجرة المرايا غير أنّه أحسَّ شيئاً ما يتملّكه من الصور المرفقة على الجدران، أصرَّ على أن يسكن الوحدة، كتب هذه الجملة وأظهرها عنواناً داكناً "يومي ممتلئ بالوحدة"، أمهل نفسه قليلاً لمتابعته أوراق صندوق عالمه الأول، أدار وجهه نحوه، التقط ما اتسعت كفهُ من الأوراق، ثمة جُمل متصدرة تنوب عن مجريات الواقع "أنا أعيش يومي من دون ملل، قريباً من عائلتي الجميلة، لدي أصدقاء كُثر أسعد بوجودهم معي"، مع باقي التفاصيل الأخرى، تأمل متيريانو ما كتب، كانت تلهج بإبادة الفراغ وأشغال يومه بالمحبين فضلاً عن أنّه يتحدث مع أفراد عائلته ويهتم بمشاكلهم والمنغصات التي تحدّ من حركتهم، الشيء الملفت أن هناك بعضاً من المفاهيم المستقرة في عالميه دونت بصورتها وتعريفها، فقد بان أثر صديقه غراند جلياً وتجليات متحف الفلاسفة وممن يقتني نقاشاتهم من أصحاب التماثيل، اتجه إلى كرسي بجانب الهاتف وانهمك في سرد سيرته الثانية، أعطى عدداً وتاريخاً للورقة وأشار إليها بعنوان يظهر على أنّه في عالم يعتد بعقله، ذكر أن دنيا الفلاسفة التي ظهرت في منزله الذي بات سعيداً بوجودهم وكأن أرواحهم المحلقة أشعرته بالألفة لكنه لا يعرف من الذي بادر

بتعليق هذه الصور، أرسل لميرنا رسالة صوتية، أكمل ما عليه وأودع الورقة في الصندوق غير أنّه لم يذكر التداعيات النفسية التي أحاطته في هذا العالم، لعله أراد أن يؤنس وحدته بهذين العالمين، غير أنّه ترك بعضاً من الجذاذات على المنضدة ذاكراً أسم صديقته ميرنا ولصقها بخط عريض على الرغم من الإشارة إليها في الصندوق، عند الصباح ارتأى أن يعمل بيضاً مقلياً لكنه انغلق إلى عالمه الأول، امتدت قدماه إلى غرفة الجلوس لم يتفاجأ من الصور التي غطت الجدران، تأمل المكان قليلاً شاهد ثمة بعضٌ من التغيرات في مكان جلوسه، وأيضاً كوب القهوة المتواجد قرب الهاتف على غير العادة عزاها إلى زوجته ومشاغلها، ابتسم في سره متمتماً أواه يا نافيكا ما زلت تبتئسين من مواء القطط، اتجه نحو غرفة جوتفريت، وقف عند عتبتها وأودعها قبلة طائرة قبل أن يغادر المنزل، مرّ على حجرة المرايا أنهى دورته بعناية على أمل أن يكتب يومه وما تراءت له من قضايا وإن كانت عابرة وإيداعها في الصندوق، لكنه انصدم من وجود صندوق خشبي ثانٍ مكتوب عليه عالمي الثاني، لاح له طيف مستمد من حجرة المرايا، ماسحاً زوايا المنزل وكثيراً من الصور المعلقة وراح يغور في جماد الأشياء، اقترب من

الصـندوق، فتحـه بخشـية لتـرد عليـه أوراقٌ مقيّـدة بعـدد وتاريخ كتابتها، بل حتى الوقت المرقن إزاء كتابة الحالة، تفحّصـها جيداً، تيقّن من خطه لكنه لـم يتذكر متى دوّن مضـمونها، قرأهـا بدقـة، كـان بمفـرده بطـل هـذا العـالم، انصدم من كونه بلا عائلة، وعن حفاوة صديقته ميرنا به، وأن ثمة ما يستدعي إصابته بمرض ذهني، ذاكراً رسائل الهاتف الصوتية، أعاد الأوراق إلى الصندوق، راح يراجع الصوتيات التي وصلته من الهاتف، شاكاً في ثباته وطريقة تصرفه، وما آلت إليه الأمور في كثيرٍ من الإضافات التي لـم يعِ أوانها ونواياها، جلس قرب الهاتف، صار يعاين الصور المعلقة وحجرة جوتفريت ماداً بأذنيه، آملاً سماع وقع خطوات زوجته، صرخ أن ثمة روحاً معي، إنهم معي، فتح مسجل الهاتف لتصله رسالة من ميرنا "شكراً للرب يا متريانو: متى ما دعتك حاجتك لزيارتي أهلاً بك، أنا الآن خارج المدينة، قبل أن هناك معرضاً للنفائس سأزوره، لكم أردتك معي"، شاهد تاريخ إرسالها كانت قبل يومٍ واحد، تابع الرسائل الأخرى، وجد أن ثمة مبادرةً منه لميرنا تطمئنها عن صحته، أغلق التسجيل وراح يتقصى حُجرات البيت جيدا عازماً أن يرد إلى مسامعه صوت ابنته وكثيراً مما قالته زوجته، لكنه يئس من ذلك،

صرخ أين عالمي؟، بل أين عائلتي؟، كان يعاين إلى رهطٍ من الصور المعلّقة باتجاهاتٍ مختلفة ومن بينها صور عائلته مدركاً أن ثمة حياةً خارجة عن إرادته ساعياً بأن يجدها، شعر بالغثيان، استدرك هذه المواجهة برسالة إلى ميرنا يخبرها عن حالته الصحية المطمئنة معيداً إليها بعض الجمل الندية التي لها وقعها خلال الحديث، تنهّد بضجرٍ وتضاءل تركيزه، أيقن أن شيئاً غريباً حاصره ليجعله في هذه الغربة، حاول أن يقتفي أثر من كان معه ليكون محقاً فيما يدعيه وينال الراحة لكن لا أحد منهم، أدرك أنه في حالة يصعب فهمها، سعى أن يسجل ما حصل خلال اليوم ويضعه في خانةِ العالم الذي يعي مضمونه بحسب ما استقرأه من محتوى الصندوقين فضلاً عن معرفة وجوده واستيعاب الدهشة التي تنتابه وتمكنه من المفارقة الذهنية التي تصيبه حال انتقاله من عالم إلى آخر، قرر أن يبعث رسالة إلى ميرنا يرحّب بزيارتها على الرغم من ضجره لكنه أراد أن يُطمئن هاجسه أولاً ويثبت لها أنّه على ما يرام، غير أنّه بقي يتأرجح بين نظرته لنفسه والشك الذي اقتاده بعيداً وبين موت الآخر بالنسبة إليه، كيف له أن يتحرر من قفص ثنائية الذهن التي تلبّسته، تنقّل بين الحجرات ليساوره ضوءٌ شفيفٌ غلب على

طبيعة مشاهدته، تقدم من مكانه وراح ينظر إلى حجرة المرايا، أمعن النظر طويلاً لوجهه، أراد أن يعي قادمه تبعاً لمراجعة ماضيه والنظر إليه لكنه لم يستطع، كان يسترق أنظاره بحذر ليعثر على ما يريد، أحسّ أن ثمة أشعةً بيضاء اللون متواترة تمحو ما فاته، تراجع بسرعة، تفاجأ أن للمرة الأولى يحصل ذلك، قرر توثيق ما حصل معه في ورقة وإيداعها في صندوق عالمه الأول عازماً النوم بعدها، لكنه أظهر بعض الأمور التي من المؤكد مصادفتها، عمله، ميرنا، العالم الذي يعيشه بجذاذات صغيرة وإلصاقها على المنضدة ليكون على بينةٍ من أمره، في غداة اليوم التالي كان مساره واضحاً من دون تهويمات، لكنه ما زال مستقراً في عالمه الأول، وقبل أن يذهب إلى عمله تفحّص اسم ميرنا جيداً مع الهامش المذكور لبيان الصلة التي تربطه معها، أراد أن يرسل لها رسالة بالمجيء قبل أن يتحول إلى عالمه الثاني، غير أنّه أرجأ ذلك كونه آمن بمعرفتها في العالمين فلا يرافقه الذهول فيما بعد، ترك لها رسالة ناعمة بالحضور إلى منزله عند الساعة الثامنة مساءً مبرراً عدم اللقاء معها في مكانٍ آخر؛ لانشغاله بمهام إضافية في عمله، أراد أن يوهمها بأنه في حالة صحية جيدة، قبل خروجه من منزله

أودع ورقةً ذكر فيها ما ابتدأ به يومه ووضعها على المنضدة بوصفها علامة دالة تشي بمعرفة الحالة التي يمر بها أو التي تقابله بمدة متعاقبة على أمل ادخارها داخل الصندوق بعد اكتمال مبتغاه، غير أنّه مسكها بيده عازماً أن يعي الأحداث التي تصادفه باللحظة عينها، في الطريق أوقفته استفهامات المارة مبادراً إياهم بابتسامة خجلة ومنهم من استقرت عنده رغبة السؤال وأشياء أخرى تقوده للأجوبة، لكن لم تنبسَ منه سوى جمل عاثرة مغيراً مدار الحديث قدر المستطاع، انسلَّ منهم بالكاد مفهرساً كماً من الوجوه التي لا يعرفها ممعناً النظر فيما قالوه، كان يمشي بحذرٍ من دون أن يميز أي العالمين وجهته فقد انمحت تفاصيل الأمس وحكاياته غير أن قصاصة ما زالت ملتصقة بيده ليكتب عليها "من أي العالم أنت يا متريانو"، استوحش قدره كثيراً، أراد أن يعرف مساحة اللوعة التي تستنزف ذاكرته لتزيل مدَّخراتها، تلبّك حيال من صادفه مرة أخرى، استعاض عن هذه المحنة بكلماتٍ شاردة تدل على انهماكه بشيء معين، استدار قبالة الذين سبقوه محاولاً أن يسألهم "من أنا؟ أرجوكم، أحدكم يدلني عليّ"، غير أن وجوههم غادرت وأكلتها لعنة الإنمحاء. لم يتبق من ذاكرته سوى أوانه، لكن الذي مر به

من أحداث في العالم الذي يقطنه ما زال معه، طالع الورقة التي بحوزته وكتب عليها: "أن الوجوه التي تصادفني لا أعرف غايتها"، هل أنا غريب عن هذا العالم؟، أريد أن أنسجم معهم، توقف قليلاً، أحسَّ أن الريح سورته بصورة غريبة وقد حدَّت من حركته وبانت كما حجرة المرآة التي استوعبت يومياته، مراياهُ/ أيامه الذاوية التي أحاطته!، تأكد من ذلك، صار يرى قوامه كله،، كذلك ملامحه، غير أن ثمة عتمة تهيأت وراءه متى ما أحدَّ بصره إلى الأمام تتعالى ارتساماتها في الخلف، يقرّب أنظاره تتضح وتزداد، شعر بعينيه قد تحجرتا ورقبته شلّت عن الحركة، لم تسنح له فرصة الصراخ فسرعان ما تبددت الريح وكأنها أعطت له حكمة تخبره بعدم الالتفات وسر نحو قادمك على الرغم مما صادفك من الألم، حالما زايلته الرهبة تصحرَّت قدرته وشعر أنّه بحاجة إلى مأوى، تباطأت خطواته وتضاءلت غايته على الإيفاء بما لحقه، غير أنّه دخل إلى عمله على الرغم من إحساسه الفظيع بالوحشة، كان مستوفياً غرضه إمعاناً لطبيعة المكان، قبل أن يودع الورقة في جيبه الأيسر قرأها بتردد "متريانو أنت في عالمك الأول" غير أن أنظاره انسحبت نحو الجملة التي كتبها تحتها "من أي عالم أنت

يا متريانو"، تناهت إلى مسامعه كلمات غراند للتوجه إلى مجموعة من الوافدين، أحسَّ بأنه مدرك لما هو عليه، أكمل مهمته وراح يطيل النقاش مع تماثيل الشمع، يهمس لهم ويتوقف أحياناً عن الحديث وكأنه يصغي إليهم، أراد أن يحصي الشخوص الموجودين في عالمه لكنه وهن، كانت الورقة بيده لتعطي له أمارة جادة عن صلته بواقعه غير أنّه استأنس بذلك مرهوناً باستقرارٍ نسبي مكَّنه من التجاوب مع الآخر، هكذا شعر حال مضي بعض الوقت من دون ترادف الاستفهامات التي تأتي له من الخارج، لكن سرعان ما تقدم نحوه غراند، بملامح راكزة:

- كيف حالك يا متريانو؟

ارتعب لحظتها وبانت عليه مظاهر الشرود، من دون أن يعلم، فقد بادر بإعطاء الورقة مع تسليم محتواها لغراند "أنا في عالمي الأول"، تسمَّر غراند حيال ما قرأه لعله أراد أن يعطي جواباً لكم التساؤلات التي لحقت صديقه أو لكثير من الذين قصدوه، وكأنه خفّف حملاً ثقيلاً عن كاهله، لاحظ غراند ذلك من خلال سحنته السائلة وبلحظةٍ فاصلة تغيّرت هيأته مع صفاء ملامحه غير أنّه صار متسائلاً عن وجود صديقه بقربه، تمعن غراند به، كانت الورقة بيده، أخذ ينظر لها معيداً النظر

لمتريانو، جاهد بأن يستقرئ درجة الثقة التي يطرحها، دفع الورقة التي بحوزته تناوشها متريانو وكأنه يمسكها لأول مرة، هكذا شعر غراند حال رؤيته له، أخرج قلماً من جاكيته شطب على كلمة الأول ليستبدلها بالثاني، أنا في عالمي الثاني يا غراند، كانت جملة متريانو دافئة نقية جداً، أحسَّ عبرها أن صاحبه يتألم ولا حاجة للحديث في أمرٍ محسوم سوى السعي لإنقاذه من هذه الأزمة، تساءل متريانو بالحال:

- هل تشعر بأني أتصرف بصورة غريبة؟، أنا أسير بمدونتين، أعيش في عالمين شاخصين، أشكر اليسوع كونك معي ولم أنسك.

أصرَّ غراند أن يوصل صاحبه إلى منزله، كان يصغي إليه بصورة جادة مشدوهاً في التفاصيل التي تخرج منه، على الرغم من انهماكه بالحديث غير أنّه لم يفت أن يسجل ما صادفه في الورقة ودسّها في جيبه، حال وصولهما إلى المنزل، تفاجأ غراند بطبيعة الشخوص الوهميين الذين كان متريانو يعيش معهم، صورٌ معلقة وصندوقان لعالمين رحبين لكنه لم ينتبه لوجود حجرة المرايا، كان المنزل منفصلاً عن جوهره ومتصلاً به في أحايين أخرى، شعر بهاجسٍ مفترضٍ ينوب عن

الشخوص التي فقدت، أرواح تفور بكنهها، تملأ المقاعد الفارغة، اتجه متريانو صوب الصندوق وراح يودع ما دوّنه مستوفياً جذاذة كتبها بالحال واضعاً إياها على المنضدة "أنا في عالمي الثاني"، اقترب غراند منه أراد أن يعجّل من ذهابه إلى الطبيب غير أنّه أودع له ورقة مكتوبة بخط عريض "أنت على ما يرام يا متريانو" وأشار بأصبعه نحوها دلالة على التأكيد حال تغييبه أو سأمه أو تحوّله إلى عالم آخر لكنه أوكل نيةً بمتابعة حالة صديقه عن كثب على الرغم من أن هناك رفضاً تاماً من قبله بالشعور بالفقد، قصد أن يعيش وجودهم، لكنه تيقن من أثرهم المماثل بروحه بل بوعيه المغاير من خلال النزوع نحو تفاصيلهم وأشياءهم لتسكنه عالماً يسعى للطمأنينة، لم تشكّل عند غراند الحالة المرضية الواضحة لمتريانو فقط بل توقف أيضاً عند منسوب الراحة التي تعنيه ومدى تدفقه بالأمل وتصالحه مع مخياله من خلال إيفاء جميع الأمور التي تعنى بموتاه، كيف له أن يكون متكيفاً لهذا الحد؟ -يتساءل غراند- وما الدافع وراء ذلك، هل هو الحب؟ أم عدم الشعور بالخذلان والانكسار لما يخلفه الموت؟، هل الخشية لها أثرها الناجم عن عدم الخضوع للواقع وما يسفر عنها من تراجم؟، راجع غراند كل هذه

الاستفهامات مبدياً ابتسامة هادئة لصديقه على أمل أن يكملا حديثهما في وقت لاحق، في الحال راجع متريانو الهاتف كان قد وصلته من ميرنا رسالة تخبره بالمجيء عند الثامنة مساء، فرح كثيراً بذلك أعدَّ لها قائمة من الصور والتحف التي يبغي اقتناءَها، دوّنها في ورقة ووضعها على المنضدة مستحضراً تحوّله إلى عالم آخر ليتذكر ما عزم عليه، لكنه توقف إزاء شكل ميرنا وهيئتها، على عجالة من أمره أحضر ورقةً وقلماً وحاول أن يرسمها لكنه عجز عن ذلك كونه لا يجيد الرسم، كتب بعض تفاصيلها، جميلة بالنسبة لي، تضع عطراً خفيفاً، ملامحها ملفتة، تلبس نظارة طبية ذا إطار ذهبي، لعل الأزرق هو اللون المفضل لها، كل هذه الجزئيات كتبها واضعاً إياها على المنضدة وجلس قبالتها، بعد مدة وجيزة انتابه الرعب والوحدة عند هذا العالم الموجود فيه، شعر بالغربة ومرارة الفقد، كان يتابع صور عالمه الأول والأرواح الافتراضية لمن فقدهم وعن الدافع المحفز لهذه الألفة التي ابتدعها لنفسه وسوّته إنساناً يؤثث عالماً ويمكث فيه ليأمن، أخذته محنة في أن يرى وجهه، محدقاً بالخطوط المترامية هنا وهناك، مستوعباً الحياة بمعناها الحقيقي، أراد أن يعي جيداً غرض تقدمه في العمر وما

يتمخضه من كهولة وعن مسوغات الموت، تأمل في قادمه وراح يستدير إلى الوراء من دون نيةٍ سابقة، صادف أن شاهد بعضاً من صور العائلة، استقرّت ذاكرته ومهجته عندها، أصبح ينظر بروح متوددة ومرتاحة، تعايش متريانو معها، صار يضحك هنا ويبتسم هناك، تلقّف ورقة وفي نيته أن يكتب عما حصل له غير أنّه أجّل غايته هاماً في ماهية الاكتراث لعالم يُشعره بالرخاء، عالم يجد فيه من يحب مهما كانت نظرة الآخر له، تَحرّك باتجاه الصور المعلّقة، هزّ رأسه بعبث، هل أنا مجنون؟، تنهد بحيرة موثِقاً ما شاهده وأودعه بالصندوق، عنون الورقة بخط عريض "سأأتلف وإن كلفني الأمر الكثير"، لحظتها شعر بالغثيان وكأنه يبحث عن ظل لوجوده الشارد، استدرجته غايته بعدم الاستقلالية من هذا المكان منحازاً لدنيا الأرواح المعلّقة والمتماهية معه، لما يزل متريانو في عالمهِ الثاني لكنه شعر أن ثمة ما يجعله يستمع لخطوات تنزلق، وأصوات لا يدّخر منها غير الصدى، وبلحظةٍ خارجة عن المعتاد تغيّر هاجسه وراح ينفصل كلياً عن عالمه الثاني، تقدم باتجاه الطاولة شاهد جذاذةً مكتوب عليها "أنا في عالمي الثاني لكني لا أشعر بالوحشة، أعرف ماهية الصور وما هو شأنها، أقصد صور الفلاسفة

وأضحك كثيراً، ستأتي ميرنا عند الثامنة مساء" مذيلا إياها بهامش عن طبيعة ملامحها، أخذ الجذاذة مستوفياً غرضه منها بشطب الثاني وكتابه الأول على الرغم من عدم وجود تحولاً عظيماً في ذهنيته، لكنه أسقط إحساسه على ما كان يفتقده في عالمه الثاني، أمسك الورقة بيده، ظل مشغولاً بالقادم، كان فرحاً جداً وهنا من النوادر أن يفرح بقادمه مجرداً من أية سطوة تدعوه إلى الضجر، حال استقبال ميرنا توردت ملامحه وكأنه يعرفها، كانت ورقة العالم الأول وما دوّنه متريانو من ملاحظات مكتوبة على المنضدة، سُعدت ميرنا برؤيته غير أنها تابعت التفاصيل المضافة على الجدران مسرفة النظر نحو الصندوقين وما كان مبعثراً من جذاذات على المنضدة، ليبادرها بالحال "أعرفكِ يا ميرنا كوني مطمئنة"، لم تعِ ميرنا ما كان يقصده لكنها تأكدت من مرض متريانو ومعاناته بحسب تصرّفه وطريقه تعامله:

- متريانو ما الذي تشعر به؟

- أنا بخير في هذا الأوان، ثمة أناس أحبهم وأتمناهم معي، لا أستوعب رحيلهم، ما الضير بأن أنقل ما أرومه من عالمي الأول لأفهرسه هنا؟، كانت أنظاره راكزة لكنه يعاين باستمرار إلى الورقة معيداً الكرّة "أنا في عالمي

الثاني"، ليستأذنها بأن يحضر لها القهوة، أصرَّ متريانو أن يزاول السعادة بعدم الشعور بالفقد في أي عالم يكنه، يزيل من خاطره فكرة موت زوجته وابنته يعيش اللحظة المشبعة بهم، يشعرهم وأن لا يدرك أجسادهم، لا يريد أن يتقدم بل يقف معهم إيماناً منه بأن المسير إلى الأمام/ المستقبل اقتراب من الأجل، لم تندهش ميرنا من حديثه غير أنها تخطت قليلاً مكانها لترى ما كان يتقمصه ويشعر به، أحسّت أن ثمة عالماً يسكنه، عالماً حسياً لا يأبى الفكاك منه، متأملة في ماهية الصدمة ونوعها، تلك التي تجعل الإنسان ينفلت عن صوابه ليندرج في عالمٍ يستقر عنده، كيف له أن يمارس الخداع على أنه فعلٌ يقيني خالص، هل أنه خداعٌ بالمعنى المطلق؟ أم نافذة يبصر من خلالها ذاته مقترنة مع من تحب؟، لعله هروب من الواقع ليخلق له مستقراً يستأصل منه القلق واللوعة، انتبهت ميرنا لذلك ممهدة له الحديث ومتقبلة كلامه السابق وعالمه أيضاً، نادت متريانو لكنه لم يُسمع له صوت، تسللت إلى المطبخ كانت ملامحُه صاخبة، بادرها بالحال:

- اشتقت لك.

- وأنا أيضاً.

تحدّث معها بصورة منكسرة لكنها انتزعت هذه الرؤية بالتنويه إلى زوجته وابنته، ارتعدت فرائصُه، أراد أن يقول لها أنهم ماتوا غير أنه تمرد على ذاته واقتنع بما تقول، انفتح حديثه من دون تريّث ليمضي به عما حصل مع زوجته، كان يتحدث بنهمٍ وكأنها في الحجرة المقابلة، تجاوبت معه ميرنا لتبدو ملامحه أكثر اتزاناً واتساقاً مع روح المكان، لم يكترث للورقة التي بيده على الرغم من أنها تنطوي على أحقية عالمه، لتبادله ميرنا بنفس الروح وكأنها مصدقة به، قام من مكانه بهدوء بعد أن دفع ورقةً على المنضدة مكتوبٌ عليها "لك أن تتبع حدسك لتحلَّ حيث المستقر، العالم الذي يقصد وجودك وينيره، عالمك الفعلي كافح وناضل بأن تخلقه لتأنس معه"، بالحال سارع إلى إبعاد الصندوقين ليكتب على الحائط "أنا بخير أيها العالم، سأسعد كثيراً حالما تكون مرآتي تبصر القادم من دون أن تعير اهتماماً للماضي شريطة أن يكون القادم خالٍ من الفقد، لنا أن ندعي ذلك لنبتكر عالمنا ونديره، سأضطر إلى تحمل مزاجية زوجتي حال سماعها مواء القطط" ابتسم الإثنان عند الجملة الأخيرة وراحا يعلقان صورةً تضم أفراد عائلتهِ قبالة حجرة المرايا آملين الخروج من المنزل بعدها.

رهان القادم

الطريقة التي قابلني بها الدكتور ديبرا جافة جداً وسمجة، لا أريد أن أخادع نفسي في ذلك فقد كنت متيقناً من موقفه لما وصله من كلام قلته بحقه، غير أنّه كان ممتعضاً من دون أن أسوّغ له السبب، لعل الطبيعة المعنية لأساتيذ المراحل المتقدمة أصحاب الأمزجة الحادة الذين لهم هالتهم الباهظة التي تؤهلهم لأن يكونوا من العلماء المقَدمين، لكنه كان ساخطاً عليّ ولا يطيق سماع صوتٍ لي، في حقيقة الأمر إن البحث الذي تقدمتُ به بخصوص استقراء حالة الإنسان بعد تجميد أعضائه الحيوية لمدة عشرين عاماً كان مهماً، غير أنّي طورتُ هذا البحث بعد صناعة الروبوت (شيفا)، والتنويه إلى أخذ السائل المعني بقلب الإنسان، بعد إيداع القلب في محلول حيوي يستخلص كافة المشاعر لمدة لا تقل عن عشرة أيام، وإدخال السائل المتولد في دوامةٍ كيميائيةٍ تعضّد من مواءمته لهيكلية الروبوت، فضلاً عن قابليته على تحفيز وظائفه وإنعاشها وبثها عبر إيعازات

كهرومغناطيسية في جهاز مزروع داخل الروبوت ومؤقت بعدّاد يحتكم لنبضات القلب الطبيعية ومتفق من حيث استعداده لإيفاء الغرض؛ ليتم من خلاله الحاق الهاجس الشعوري والمدى المعني لإحساسه، وهنا تكون العملية قد اكتملت لصناعة قلبٍ نابضٍ لإنسان آخر مشابه لفعالية الأول من حيث العاطفة الكلية التي ينتج عنها التصرف والسلوك والفطرة، مع اجتزاء بعض الأمور التي تُعنى بالشكل والملامح وقد تجري تعديلات في مضمون الهيأة في حال لو أخذت بصمة إلكترونية من تضاريس الجسد الأصلي وتخطيطها بمقاسات الروبوت وتصنيفها بصورتها الصحيحة على وفق برنامج حاسوبي هُيّأ لذلك، لنعمل على بناء إنسانٍ آليً مستل بجميع التفاصيل من الجسد والشعور للإنسان الحقيقي نفسه وفي نيتي أيضاً أن أطوّر هذه التجربة بعد إجازة البحث من قبل دائرة الأبحاث العلمية.

كنت في صراع دائم عن السبب الذي على أثره استُبعِد البحث ولم يُعطَ أهمية، على الرغم من كم الطلبات التي تقدمت بها الدكتورة مايانا في كيفية التعاطي مع مستحدثات علمية تجدي نفعاً على معمارية الإنسان الحسية والمادية، وإتمام غرضه بعد التحول العصري

الذي سيواجهه، كانت رحلة الدكتورة مايانا في تجميد الأعضاء البشرية مستقلة بحد ذاتها وجادة للاستفادة منها من قبل أناسٍ آخرين، وقد كنتُ معها في تصعيد هذا الإنجاز العلمي والإنساني، غير أنّي اجتزت بعض التفاصيل التي عُنيت بماهية الشعور الذي يكنّه الفرد ليكون الدور الفعلي لهكذا مشروع أن يحسر مراحل الفقد ويزيل مضمون الوحشة لعائلة الميت، قد يكون لهذا السبب جاءت هذه الفكرة بعد تقديم الروبوت (شيفا) من قبل وكالة (الحياة الموازية الطبية العالمية)، وإعلان دور الرجل الآلي وتقليص دور الإنسان في هذا الكون استعداداً للمثول نحو حياة مغايرة، واقعاً أن الدكتورة مايانا حريصة على متابعة البحث نظرياً والشد على يدي بإنجاح المشروع بتجارب حية، غير أن ثمة بعض المعوقات التي تخص الإنسان نفسه وما يعنى بالجرأة أيضاً في قضايا كبرى مثل هذه، كنت عازماً على أن أُعيد النظر في ماهية بث الشعور واتساقه مع الجسم الآلي، وفق إيعازات تهيمن على طبيعة عمل العقل أيضاً واتصاله بالسائل الذي يُحقن به الروبوت عبر وصلات كهربائية تنشّط وتفعّل الجانب النفسي لديه، بالذات بعد إصابة سكان بلدة (دام) بالتهاب الكبد الفايروسي من نوع

© والقضاء على نسبة كبيرة منهم، في حينها حرصت على مفاتحة عددٍ من المصابين والميؤوس من حالتهم في أن أحصل على السائل المعني بالقلب لخلق إنسانٍ آليٍ مشابه للكائن البشري الأصلي من حيث ثرائه العاطفي وما يترتب عليه من مستويات تعنى بذلك، غير أنهم كانوا يفضّلون أن يذووا ويموتوا من دون إجراء أي شيء يهز مكانتهم، كنت مستاءً جداً عن عدم البت بمشروعي والموافقة المبدئية عليه من قبل المجمع، تحديداً بعد إبداء الدكتور ديبرا على عدم مقبوليته لأسباب علمية خارجة عن إرادتهم، فضلاً عن عدم وجود الشجاعة الكافية للمرضى بأن يخوضوا غمار هذا الفعل، لكن الذي غيّر نيتي اليائسة هي تلك الرسالة التي وصلتني عبر الوات ساب من رقم غريب لسيدة تدعى إيسلا عرّفتني بنفسها بصورة عابرة تقول بأن ولدين لديها أحدهما معاق والثاني مصاب بمتلازمة هيجن النادرة من نوعها، تدعوني لزيارتها لتلبية ما يتبناه المشروع لكنها اشترطت أن تكون الزيارة سرية، تسمّرتُ لحظتها متسائلاً في حينها، هل ثمة ما يسترعي أن تكون الزيارة سرية في حال لو اجتزت المهمة بنجاح وصار الإنسان الآلي تكاملياً فاعلاً في الشكل والمضمون، هل تبقى متوارية

بعيدة عن الإشهار؟ تماهيتُ مع طلبها غير أنها أعادت التنبيه عليّ مرة ثانية برسالة شديدة الليونة:

- أرجوك يا دكتور أتمنى أن تزورني بسرية

كنت لطيفاً معها بل مستعداً أن أكون كذلك على مدار الوقت في سبيل أن أخرج بنتائج نافعة؛ لأعيد ثقة الإنسان بنفسه ساعياً بأن أغيّر المدار الفعلي له، أردت أن أخبر الدكتورة مايانا عن اقتراب إنجاز مشروعي، لكني تراجعت استجابةً لطلب السيدة، بعد ساعات من حديثها معي أخبرتني بأنها تنتظرني الأثنين المصادف الخامس من شهر نوفمبر، سعدتُ بذلك كونه عيد ميلادي لعلي سأحتفل به حال الفوز بمهمتي العلمية، أخبرتها بذلك لتجيبني بأنها تعرف هذا اليوم جيداً ومتقصدة إياه، كان وقع حديثها غريباً بعض الشيء، بقيت متأملاً ما تقول معيداً رسائلها بالتتابع مع خشيةٍ غير مفهومة راودتني كأن ما يشي إلى وجود عين ترقبني هامة بأثري، أنهيت الحديث معها بكلمات وقرة ومتوجسة.

هالتني هذه السيدة، كيف لها أن تعرف تاريخ ولادتي، تخطيتُ الموقف من دون أن أفكر به لعلها خبرتْ ذلك ممن يعرفني أو توسمت بما قلت طلباً للعون والمساعدة، في الصباح كنتُ متحمسا للموعد غير أن رسالة جاءتني

منها تخبرني بأنك لن تأتي الليلة يا دكتور، أؤكد لك، حاولتُ أن أكون نبهاً في أن أخالفاها الرأي بأني حريصٌ على المجيء لكنها ودعتني بجملة غامضة "إن الأرض ستمسكُ بك"، وغادرتْ بعدها، جاهدتُ في أن أعرف ما كانت تقصده غير أنها قطعت الحديث بسبب انشغالها بولدها، حلَّ المساء، عزمت على الذهاب، فقد أرسلت لي موقع البيت، سرتُ من دون أن أعي شيئاً غير اللقاء بالسيدة، في هذه الأثناء اتصلتْ بي الدكتورة مايانا تخبرني أن شيئاً قد حصل في مركز الأبحاث وعليك المجيء على أهبة السرعة، اعتذرتُ منها بامتعاض شديد على الرغم من إلحاحها عليّ بذلك، عبثاً تسللت مني جملة تخبرها الحقيقة:

"إني حصلت على مرادي بالعثور على الشخص الذي سأنفذ عن طريقه المشروع يا دكتورة"

بالحال ومن دون أن أشعر، أحسستُ بدوارٍ غريب وكأن الأرض تتقافز من تحتي، سارعتُ بأن أوقف السيارة غير أني حَرِفتُ المقود باتجاه ناصية الشارع ليفرّ التوازن مني مرتطماً بإحدى الأشجار، فقدتُ الوعي لمدة وجيزة، فتحتُ عينيَّ لأجد رسالة من السيدة إيسلا:

ألم أقل بأنك لن تأتي؟ لماذا أخبرتَ أحدهم بالذي دار بيننا؟

سارع أحد المستطرقين بإزاحتي من المقعد وإخراجي من السيارة، كنتُ على ما يرام، هكذا بدا الأمر لي للوهلة الأولى، غير أن ألماً صار يأخذ مأخذه في جسدي بعد دقائق من الحادث، اتصلت بالحال بالدكتورة مايانا لأبلغها بالذي حصل لكنها لم تجب، شعرتُ بالغثيان لحظتها، انزويتُ بعيداً عن عجلتي بمسافةٍ بسيطة، أردتُ أن أستفسر عن الذي حدث غير أن بعضاً من رجال الشرطة سارعوا بالمجيء من خلال الكاميرا المزروعة في التقاطع، أخبرتهم بأني على ما يرام لكن نوبة من الدوار انتابتني أثناء القيادة، لا شيء أكثر من ذلك، سُحبتْ عجلتي إلى مرآب قريب، أوصلتني عجلة النجدة إلى منزلي، حال دخولي شعرتُ بالتجشؤ، لتصل رسالة من إيسلا تطمئن على صحتي معيدة الموعد لي بعد يومين، لم تسعفني قدرتي على السؤال حول معرفتها بكافة التفاصيل التي عنيت بيومي، كان ذهني منهكاً ومشتتاً، لكني أجبتها بعد برهة بالقبول، جلستُ على كرسيّ المعتاد أجزت لنفسي بأن الذي حصل مجرد صدفة أو خاطرة عابرة تفاقمت مجرياتها لتصبح حقيقة،

نهضت من الكرسي متذكراً ما قالته لي الدكتورة مايانا عن الشي الخطير الذي يستوجب حضوري، اتصلت بها بالحال كانت منزعجة مني جداً، أبلغتها بما لحق بي، تعاطفتْ معي لكنها بادرتني بأن الأوعية الدموية التابعة للأعضاء تكاسل عملها على الرغم من تدويرها وتنشيط فعاليتها في جهاز سوبر كولينج غير أننا سيطرنا على الحالة، لم اشأ أن أفاتح مايانا بالذي دار معي، بل لم أكن ذا عزيمة جادة لتفصيل ذلك، خشية من إيسلا، هل حقاً أخشى من هذه السيدة؟ غير أنها بادرتني بالحال، ماذا فعلت بمهمتك؟ هل استحصلت الموافقة، صمتُّ من دون أن أتفوه بكلمةٍ واحدة متجنباً الحديث في هذا الموضوع لكني أجبتها بأنها مزحةٌ سخيفة ولم تجدِ نفعاً محاولاً أن أبدي لها غير ذلك، بعد يومين بعثتُ رسالة للسيدة إيسلا، تأخرتْ بالرد عليَّ، بعدها عاودتْ رسالتي بالترحيب مع إيداع الأخرى:

"تابع حالتك"

ارتعبتُ مما قالته لكني استعدتُ ثباتي من أن هذه الأمور مجرد تناغم أفكار عرضي قد يحصل بين حين وآخر، ذهبتُ إلى مركز الأبحاث، كان الدكتور ديبرا يزور رؤساء الأقسام في المركز خشيتُ اللقاء معه لكني بقيتُ

طبيعياً بعض الشيء، تناقشت مع الدكتورة مايانا بخصوص أخذ مسحةٍ من الأعضاء المجمدة لفحصها غير أنها كانت ممعنة النظر في وجهي ومدققة في ملاحي بصورة هادئة:

- رأيتك في الحلم ليلة أمس يا وارشو كنتَ يقظاً تتوسط مداراً من العقول المجمدة التي تنبض بصورةٍ واضحة، وقد أخلصت بمتابعتها واحداً تلو الآخر محاولاً أن تتوقف عند أحد منها، الشيء المحيّر أني شاهدتُ سيدة تترقب وجهتكَ وتتقصدك، لم أعِ ارتساماتها جيداً لكنها كانت بقوام امرأة وفي لحظة شاردة من مداخل الحلم وقعتْ عينيّ عليها لأقفز من النوم، لا أعرف معنى لهذه الثنائية سوى إنك غاطس في مشروعك لكني لمحتُ أشكالاً على هيئة عقول، نعم عقول يا وارشو وليست قلوب، حلم عبثي لا ينتمي لصاحبه أليس كذلك؟

- بالطبع.

لم أتوقف كثيراً عند هذا الهراء بقدر ما كنت منشغلاً بالأعضاء المجمدة التي تضاءل عملها وعاود من دون أن نعرف السبب، لعل ما وصلني أن ذرة هواء ملوثة اخترقت النافذة الزجاجية مؤثرة على حركة الأوعية وطريقة إدائها، واقعاً أن الدكتورة مايانا دقيقة في عملها ولم تترك شاردة

إلاّ وفككت محتواها، خرجتُ من المجمع وكلي ثقة بأن التقي إيسلا، أبلغتني برسالة تؤكدُ فيها الموعد، استقلت سيارة أجرة فلم تجهز سيارتي بعد، أوصلني السائق إلى منزل مضيءٍ تحيطه حديقة لا بأس بها، شعرتُ بالبهجة لحظتها، توقفتُ قليلاً عند عتبة الباب، ندهني الهاتف المعلق "أدخل يا دكتور"، تقدمتُ بخطواتٍ واثقة، لحظتها انتابتني حالة غريبة أحسستُ أن ذهنيتي سابحة بأشكال مختلفة تتخللها أوجهٌ عدة وتتقاذفها صور كثيرة ذات ألوان متفاوتة لا أستطيع الاستقرار عند محتواها لأميز غرضها وكأن عجلة الحياة دوّرت ذاكرتي بتسارع الزمن وتفاصيله المهولة، سرتُ بروية كان قوامي راكزاً، لعله بدا كذلك، بيد أن مخيلتي أصبحت منجماً من الأحداث المتضاربة، جلتُ المكان بأنظاري لكن سرعان ما اتسعت رؤيتي لأبصر المدى عبر السيدة إيسلا، جلستُ قبالتها غير أنها استأذنت مني لتأتي بولدها، شعرتُ عبر ملامحها الملتزمة، -هل حقاً أن ملامحها ملتزمة- أنّها ادخرت شيئاً معيناً غير ما اتفقنا عليه، أمهلتْ عَرَبَته على يساري وعاودت الجلوس، هممتُ في أن أستفسر منها عن حقيقة ما عزمتْ عليه لكنها بادرتني من دون أن أسألها:

- هذا مارتون ولدي الأكبر، إنّه معاق.

وقتها لم أنبس بحرف واحد لكني تحسّرت قليلاً بحركة رأسٍ مماثلة وعجولة، غايتي أن تكمل حديثها لأبادرها عن طبيعة مشروعي وما يترتب عليه من مهام، لحظتها كنتُ مقيداً بالصمت، أدركتُ أن ثمة قوة خارجية تمسكُ حواسي لتجعلني ممتثلاً لها، الغريب في الأمر صرت أنظر إلى الساعة المعلقة على الرغم من رقاصها المتوقف، لكنها فاجأتني بتنويه يشي إلى معرفة تامة:

- "إن رقاص ساعتك اليدوية متوقف عن العمل يا دكتور وهاتفك أيضاً"

أردت أن أصرخ لكني لم أستطع، أحسست أنها تقرأني بعناية، كانت ارتساماتها تتكلم غير أني لم أعِ مضمونها، حينها اختصني الغثيان، أحضرتْ لي قدحاً من شراب النعناع، لم أتمكن من تذوقه، ألحّت عليَّ بطريقةٍ مدرَسية، ستتحسنُ حالتك، تجرعتهُ بالكاد، لم أستحسن طعمه، شعرتُ لحظتها أن بصيرتي صارت مؤهلة للنقاش وكأني استفقتُ مما أنا عليه، لكني لم اقوَ على التفوّه بحرفٍ واحد على الرغم من إمساكي زمام الحديث، لتبادر:

- أنا الدكتورة إيسلا أستاذة علم الأجنّة والهندسة الوراثية ولغة التخاطر، -كانت تستعجلني لأسئلة مدخرة في هاجسي- اخترتك لنكمل مشروعنا معاً.

قمتُ من مكاني دون وجهةٍ مُعينة، تسللتُ بهدوء، وقفتُ قبالة الساعة، كان رقاصها يدور بهمةٍ متوجساً وقع خطواته التي تُحدث صوتاً رتيباً، أمهلتُ نفسي لمعاينتهِ، رنَّ جهازي النقال بمجموعة من الرسائل، التفتُ إليها متفاجئاً، لتخبرني:

- نعم يا دكتور، أطلقت عنان الزمن عبر رموز تخاطرية منتقاة لها مقدرتها العالية على فك القيد المعني لمقاييس الفيزياء والحركة، عملتُ عليها لأحرر مهمته، أنا لا أعني بالوقت مطلقاً، كلُّ شيء متحرك بقانون الطبيعة، ساكن بالنسبة لي، انصعقتُ مما قالته، دنوتُ منها برهبة لأسألها، من أنتِ؟.

الطريق رقم ١

لم تعد السيدة نيكولي وحدها التي عرفت لغة التخاطر في مدينة أمبيريلا أو لعلها الوحيدة فيها، فلا أجزم باليقين في ذلك، فقد توارثته عن أبيها الذي تعلّمه على يد كبار المشتغلين في الدرس وسمة القراءة عبر الأزمنة، غير أنها ماتت وهي في سن الثلاثين ولم تنجب سوى بنتٍ واحدة

تُدعى إيسلا من زوجها أرخيد الذي توفى من جراء انقلاب حافلته عبر الطريق العام، فلم ير ابنته أبداً، قصداً أودعت نيكولي غايتها لابنتها قبل أن تموت وتمنّت لها عمراً زاهياً، واصلت الفتاة العيش في بيت جدها كولوش الواقع عند الساحل الشرقي للمدينة، كان كولوش يعمل معلماً للرياضة، قيل أنّه صديق الأشجار والأنهار، يتحدث معهنَّ من دون أن نعلم بأن له سمة التخاطر مع الذين اختصهم النسيان ومحا وجودهم المادي معللاً ذلك باحتواء الجوهر من الروح والغوص في معناه الحقيقي، منذ فتنتها كانت تقترب من الطالع الذي توأم مشيئتها مع جدها من غير أن تعي أن لها قدرة على قراءة مُدَّخراتِ الآخر، خصوصاً بعد دراستها الهندسة الوراثية وعلم الأجنة غير أن حادثةً غريبة حصلت معها تيقنت أن لها هذه الخاصية، معللة ذلك بعد موت أستاذها المختص التي كانت متعلقة به جداً على طول مدة الدراسة، لتودعه عبارة "إنك في القلب" وصارت كلما أوكلت نية الحديث معه ينساب هاجسها الروحي ويُفتح لها وجدانه وكأنه معها، تصغي لحكاياه المتوارية وتدرك رؤاه لتشرع بالتساؤلات عما إذا كان الآخر يعرف أن ذاتها مكشوفة له، غالباً ما كانت تفكر" هل ثمة ما

يسترعي القول في أن أُظهر غايتي للآخر" غير أنها تتمكن من غرضها وذلك بمجاورة النهر فتجد جدها ماداً يده لها، لتسمع ما يتعالى في داخله على الرغم من صمته، كانت تشعر بالصمت الذي يضمره، فاتحها ذات يوم قبل وفاته:

- إعلمي يا إيسلا بأن لديك صفة التخاطر الغيبي الذي يؤهلك للحديث مع من اتجهت نواياك نحوه، قد يكون في زمنك المعيش أو الفائت من الحقب الماضية والمستبعد عنك، عليك أن تعتني بذلك ولا تعلنيه للملأ إلا فيما يختصر على إسعاد الإنسان وإنقاذه من القادم المريب، قد تصلك رسائل عابرة من هنا وهناك كوني حذرة.

كبرت إيسلا وتخرّجت من الجامعة، كانت تتصل بالراحلين من خاصتها الذين تخاطروا معها فلم تشعر بالوحدة، تصلها الكثير من الجمل المحلِّقة عبر الأزمنة، بعد وفاة جدها اهتمت بمشروعها العلمي ودققت فيما تراه محطة للمغايرة، جاهدت في أن تعيّن صفات وراثية لجيلٍ كامل ونجحت في إعطاء أدلة وبراهين لكمٍ من الحالات الهجينة، لم ترتبط إيسلا بأحد، فقد وهبت حياتها لمشروعها وأصرّت على أن تؤسس لذاتها مشغلاً

علمياً مختلفاً لتعنى باستقراء العوامل الوراثية للفرد ومحاولة إزالة السالب منها أو معالجتها، كانت تستقطب عدداً من الحالات الغريبة ذات السلالة المتشابهة لتنشط في فهرستها والتوقف عند خصائصها الجينية المنشطرة عن السائد، تفطنُ إلى كثير من الكائنات البشرية التي تولد بمزايا متفاوتة غير المؤتلفة مع جينات الأبوين، وقد عيّنت حالتين لولدين ولدا من رحمٍ واحد حتّمت عليها التوقف عندها، كان الأول يعاني من ضمورٍ في بعض من خلايا الدماغ وتباطؤ الحركة الفيزيائية لقدمه اليسرى، أما الثاني استولت عليه متلازمة هيجن المعروفة التي تجعله يلوك مفردة واحدة ليصرخ بتكرارها مع إلزام رأسه بعصابٍ واهتزاز، جاهدت إيسلا عبر بحثها في التعرّف على السلالة الوراثية للأبوين غير أنهما كانا سليمين بحسب التقارير التي وصلتها، أرجأت إلى أن تكون طفرة جينية مضطربة غير متكافئة من حيث الشكل والعدد نمت وانشطرت لتستقر عندهما لكنها أرادت أن تعرف عمر الناقل الجيني بحسب التعاقب الزمني للأجيال غير أنها أهملت غايتها فيما بعد مرجحةً أن تعطي رأياً علمياً أكثر صواباً لإعادة صيانة الخلايا التالفة لهما من خلال إخضاع أحد والدي الطرف المريض لعمليةٍ جراحية وأخذ مسحة

إلكترونية لشكل الخلايا ومقاساتها تبعاً لإحداثيات الخلايا المعلولة للطفلين مع اكتناه عملها والتأكد من موقعها، كأن يكون أخذ خلية طبيعية من السلالة المعنية لهما ووضعها في محلول حيوي يحافظ على سلامتها من التغيرات الخارجية مع إضافة محلول آخر معني بفرز مهام الخلية ورصانة أدائها وإبقائها لمدة لا تقل عن عشرة أيام في جهاز التدوير الكيميائي لتتم عملية سحب السائل المحمّل بوظائف الخلية الراجحة وحقنه مجهرياً في الخلية المريضة على أمل أن تعاد تهيئتها من جديد ومن ثم إرجاع الخليتين إلى مكانهما، لكن التجربة لم تفلح بحكم طبيعة الفكرة واستحداثها فضلاً عن الخوف على الشخص المتبرع من الموت، كانت فكرة إيسلا الأولى من نوعها التي لم تنفذ بعد، بقيتْ لمدة وجيزة تراجع الجينات التابعة لهما غير أن رسالة تخاطرية علَّقت لها عن طريق المصادفة تخبرها أن أحدهم ينوي بث الشعور المعني للإنسان عن طريق انغماس القلب في محلول كيميائي ليجترَّ التفاصيل التي تعنى بالعاطفة والإحساس في روبوت آلي مع الأخذ بعين الاعتبار جاهزية الروبوت ومدى تقبله للسائل عن طريق وصلات كهربائية تعطي تعليمات للعقل بأن يقبل أو يرفض، كانت الرسالة تصل

لإيسلا بين حين وآخر غير أنها توقفت عند مضمون الفكرة ومدى استجابتها للمجتمع هامة بالذي تسعى لتحقيقه، متسائلة، هل أنها حيال إعادة تهيئة الشعور والإحساس المعني بالقلب مشيرة إلى ما ورد ذكره عبر التخاطر؟ أم تترك هذا الغرض لتلتجئ للعقل وتعمّر خلاياه كيما تعدّه للمواجهة؟ وهذه ثنائية كبيرة بين العاطفة والبصيرة المستقاة من الذهن، لم تستقر عند الماهية التي دعت إليها الفكرة، بقدر ما جاهدت بأن تخاطر صاحبها لمعرفة مكانه أولاً، أملّتْ نفسها بعدم مكاشفته في أي حال من الأحوال خشية أن ينحدر طالعِه ويهاجر، لكن نواياها المستعرة تمادت لتعرف الكثير من التفاصيل عنه.

الطريق رقم ٢

حال دخول وارشو المنزل تحلّقت عنده رزمة من الرسائل التخاطرية المستترة، وكأنه فتح الباب لمستودع الأحداث التي تحاكي حقباً سابقة لذلك لم يستطع ذهنه أن يقاوم توالي المشاهد وتسارع مضمونها، وكأن الزمن قد توقف عن العد لحظتها أو ظهر له كذلك، غير أن حمولة الأيام الفائتة صارت تنهال عليه حيال المكان والأوان التي تخاطرت معه إيسلا لأول مرة، ليمكثَ عند

آخر رسالة، كانت تعرف قسطاً كبيراً من أفكاره فقد بان لها واضحاً كونها المصدر الرئيس لأطلاق مساحتها الباراسيكولجية التي تجذب إليها الآخرين لينتموا إلى عالمها.

بعد أن دخل وشاهد المكان وما يترتب عليه من استفهامات، بادرتْ إيسلا بالتعريف عن نفسها، تحرك قليلاً من دون أن يكترث لكلامها بيد أنّه أصبح منجذباً نحو حركة رقاص الساعة مستعيداً توازنه من خلالهِ بعدما كان متوقفاً، بادرها بسؤال متردد:

- من أنتِ؟ وما الذي تريدينه مني؟

تجاوبتْ مع ارتباكه كونها أرادت أن تبدد ما لحقه، اقتربت منه بحنو، أحسّت به من دون أن تنوه له بذلك فقد كان هاجسه واضحاً بالنسبة لها، لعل خطواتها المتباطئة تشي بفرصةٍ مواتية للحديث، لكن صوتاً غريباً يهذي بكلمات غير مفهومة صدر من الطابق العلوي، تأوهت بحرقة بعد أن ارتقت السلّم بسرعة تاركةً عبارات الحسرة تحوم في الفراغ، إنّه أرون فقد أتته النوبة، صعدتْ إلى الحجرة بينما ظل وارشو متسمراً، حاول أن ينده عليها أو يخرج من هذا المنزل الغريب من دون أن تعلم، أطال النظر إلى الولد المعاق الذي بجانبه، كان

مستتباً وعيناه ما زالتا لم تستقرا عند وجهة معينة مع تراخي رقبته وقدمه اليسرى، رفع وارشو عينيه وكأنه ينتظر مبادرة منها لتمد رقبتها:

- تمهل يا دكتور سأجيئك بالحال

ارتعبَ من هذا الاقتراب بالسؤال والجواب متسائلاً في سره كيف لنواياي أن تكون متاحة لهذا الحد؟ استطلع محتويات المنزل بخشية، كانت غايته منكبة في أن يغادر لولا استسماح إيسلا الأخير في أن ينتظر، أحسَّ وارشو أن شيئاً ذهنياً أحاطه وبدأ يخترقه، لكنْ ليس بمقدوره معرفته بل لم يكن على قدر كاف في أن يتقصى غرضه، نزلتْ إيسلا من أعلى السلم محتضنة فتى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ذي ملامحَ مكوّرة من شدة الإجهاد، سندته من أبطيه، كان وقع خفقات نعليهما وحركتهما الثقيلة تضفي مسحة من القلق، جاءت به وأجلسته بجانب الولد المقعد:

- أرجوك استرح قليلاً يا دكتور، هذان الأخوان مارتون و أرون، كنت قد تابعت الجين المنشطر من سلالتهما، واقعاً أنهما لا يمتّان لي بصلة لكني تبنيّت حالتهما الصحية بل أصبحا جزءاً نبيلاً من وجودي وكل

ما يُعنى بالمفاهيم الدالة على الحياة والأمل والمصير، هلا فكرت معي بإنقاذ الإنسان.

سكتَ وارشو برهة بينما ظلت إيسلا تنظر إلى تقاسيم وجههِ المشرئبة وكثيرٍ من اختلاجاته المستفهمة، أحضرتْ له قليلاً من شراب النعناع، استقر بعض الشيء، أراد أن يقول لها من أين لك معرفة كل ما يجول في خاطري غير أنّها بادرته:

- التلاحم الروحي هو الذي ذلل العقبات وأزالها، تناغمَ طالعك ليتصل مع رغبتي ودخيلتي، لتكون معلوماً بالنسبة لي، التخاطر هو الذي أفصح عما لديك، هل أنت خائف يا دكتور؟ أنا الدكتورة إيسلا أستاذة علم الأجنة والهندسة الوراثية، جاهدتُ في أن أعيد صيانة الخلايا المعطوبة في دماغ الإنسان عبر تهيئة خلايا وريثة لها ومشابهة من حيث الخصال وادخارها في محلولٍ لبيان وظيفتها عبر السائل وحقنهِ في الخلايا المعلولة مع إعادة ترميم أنسجتها على وفق توافقيتها مع الحالة الجديدة التي نكون نحن بصددها، تفحص وارشو كلامها بدقة من دون أن يتفوه بكلمة، لكنه تأمل ما قالته، فقد اشتغلت إيسلا على خلايا العقل كونه المحرك الأهم في المناقشة واتخاذ الرأي واشتغل هو على الجنبة الشعورية، لكن

الشيء الأكثر أهمية أنّها سعت للعمل على صيانة العقل تبعاً لمعالجةٍ علمية دقيقة أي ما ينجّي الإنسان من أي قصور في الوظائف العصبية، أما هو فقد أوكل لنفسه ثقة بأن يبثَّ السائل المعني بالقلب داخل الروبوت مع الاحتفاظ بجسم العقل كما هو عبر مقعد صغير في رأس الروبوت مكيفاً بدرجة حرارة الجسم المأخوذة منه العينة ومرتبطاً بوصلات كهربائية؛ لتهبه زمام المبادرة والقابلية على إعطاء القرار فقد سعى إلى تشييد إنسان الآلة إمعاناً لمشروعه الذي لم يكتمل، غير أنّه لم يتطرق إلى خفوت الفعل الذهني في حال لو تعرض العقل لتصدع، كررت إيسلا جملتها السابقة "علينا أن نشتغل على الإنسان"، كانت نظرات وارشو اكثر استيعاباً من ذي قبل، هكذا شعرتْ إيسلا بعدما أشارت له لواقع الولدين، أنهت حديثها بكل تفانٍ حول تفاصيل مشروعها منوهة لملفٍ موضوع على المنضدة المقابلة، "هذا البحث الذي يعيد قيمة الإنسان واعتباريته إزاء نفسه والآخرين"، أخذه وارشو بالحال وعيناه شاخصتان بصورة نهمة بالصفحات الأولى منه فلم يعد مقيّداً بمكان تواجده أو بما تقوله إيسلا بحسب استجابته لها، غير أنه فكر بالكيفية التي عن طريقها يعيد صيانة الخلايا.

- أما كان الأجدر أن نتابع حالة الجينات ونموها الطبيعي لكي لا نقع في المحظور؟ -يقول وارشو في سره-.

ابتسمت إيسلا ابتسامة كاشفة عن محتواه المضمر بعد أن أخذت بالاتكاء على مرفق كرسيها، لتردفه:

- فكرتك صائبة يا دكتور لكن علينا أن ننظر إلى المتواجدين على سطح المعمورة لنعيد ترميم ذواتهم المنكسرة -مسترسلة بالكلام- أنت تظن أنك متوارٍ، لكن صمتك المعلن هو استقراء لحديثك المخبوء، أنا اقرأ ما يتجلى بعقلك ويتصل بروحك، متى ما استكنَّ شعورك الجواني واطمأنت مقدرتك على التعافي من الخوف بحسب طبيعة خارجك المادي ستتحدث وتنطلق طاقتك الكامنة بترددات الفعل الفيزيائي، غير أني أسمعك، أنت معلوم بالنسبة لي وهذا يكفي، لكنك الآن محكوم بهالة التخاطر، تخشى أن تقترح فكرة معينة لتكون مكشوفاً، تحتاج إلى عناية يا دكتور.

كان إحساس وارشو بما تقوله إيسلا عظيماً غير أنه ما زال يدور في عالم انتقال الأفكار وافتضاحها، حاول بجدية أن ينسحب من هذا الطقس مبتعداً عن الأثر الذي تركته له، تخاطرتْ هي مع ما وصلتها من رسائل كان

محتواها متفقاً مع أفكارها، تحرّك هاجس وارشو قليلاً، لعل الوقت الذي أجاز له بذلك، غير أن مدى استقرار دخيلتهِ هو الذي جعل قابليته ممكنة على اجتياز حاجر الصمت، أخرج هاتفه، لاحظ أن مايانا اتصلت عليه أكثر من مرة، لم يأبه في حينها، أمهلته إيسلا قسطاً كبيراً من التأمل بغية أن يتبدد صراعه لينطلق من داخله لعالمه الخارجي.

- مشروعكِ محترم يا دكتورة -يقول وارشو- وظل يتصفح الملف، ابتسم لها ابتسامة مُرضية هكذا شعرت إيسلا لتقول له بالحال:

- ستتخاطر معي يا دكتور، كن مطمئناً بل كن على قيد ما قلناه.

همَّ بالمغادرة، سنلتقي عن قريب سأكون حريصاً على متابعة المشروع، أحلم أن أكون طرفاً بالتغيير، خرج من المنزل مستشعراً أن له قابلية على احتواء الأصوات البعيدة، ثمة من يجاريه من آخر الكون لتصله نداءات مُحكَمَة تفضي لحضور الآخرين معه وإشراكهم عبر عالم غير مرئي غير أن الصوت وحده يعطي أمارة حقيقية على طبيعة الذات ومداها المعلن. أوكل وارشو اهتماماً لحديث إيسلا، موجهاً كل وقته نحو الملف، متوقفاً عند

جملة نهشت كيانه وجعلته يعيد النظر في الوسيلة التي عن طريقها ينجّي الإنسان من هذا المخاض "دعوة لتوقف الألم"، أراد أن يصرّح لمايانا حول المشروع غير أنّه تراجع مستوفياً افتضاح أفكاره علناً لإيسلا، على الرغم من أنّه جاهد بأن يفرّغ ما يدور في ذهنه كونه مكشوف المخيال والنوايا إزاءها لكنه تذّكر ما قالته له:

"ستدور في سرك يا دكتور كنْ مطمئنا، ستخاطرني متى ما قصدتني بنيتك الخالصة وبروحك الصاعدة التي نذرتها للمشورة، فقد أخذتَ الدرس أو لعلّه أنا التي وهبته لك"

أعاد تدوير الأفكار على وفق متبنياته، ذهب إلى مكان العيّنات المجمّدة متقصداً، شاهد الأعضاء تتقلب في البراد لكنه لم يجد القلب الذي عوّل عليه مشروعه، تنهد، من أين أتت هذه السيدة التي تدّعي بأنها باحثة في الجين الوراثي وتريد تغيير العالم؟ لتقطع مايانا تساؤلاته:

- أبحث عنك في الواقع لكنك متواجدٌ في أحلامي، الحلم الغريب نفسه الذي أخبرتك به، هل تذكره؟ صمتت برهة ممعنة النظر في تقاسيم وجهي لتكمل كلامها بروية، كنت محاطاً بمجموعة من العقول، العُقول فقط وليس القُلوب، متفحصاً قوامها لتقف عند أحدٍ منها غير أن

السيدة التي لم تظهر غرضها في الحلم السابق بل لم نكترث لوجودها، كانت تصطف بجانبك بصورة تدل على معرفتك بها.

كان وارشو يرقب مايانا بحديثها الغيبي من دون أن يتوقف عنده، هاماً بكلام إيسلا عن إصلاح الجانب الإدراكي الذي يعنى بالتفكير وما يرتبط به من إيعازات تهتم بالجهاز العصبي وصيانته والإحاطة الشاملة بجميع التفاصيل الإجرائية التي توكل له السياد، تأمل ماهية الألم ومداه السائر في هذا العالم، تراءت له صورة الولدين وهما يستنجدان من شدة الوجع الذي نخر جسديهما، لاحت له أعينهم المتسائلة وكأنها تحثّه على أن يخلّصهما من هذه المحنة، كان يزاول عمله في مركز الأبحاث وهمه الشاغل عند إيسلا، فقد أخلصت روحه وأنشغل ذهنه بها، أحسَّ بأنها منتظرة له فقد كان منكفئاً على نفسه في الفترة الماضية محترزاً من أن يفشي الموضوع لأحد، وصلت إليه رسائل تخاطرية أخرى، قرأ جزءاً منها واستخلص غايته، غير أنها لم تكن كاملة المحتوى، تيقن من أن له سعة الاتصال الغيبي، لا وجود لعقبات أو مصدات فقد منح رغبته الكاملة ليكون متحرراً واصلاً إلى مبتغاه، بالحال استقل سيارة وذهب إلى بيته، كان

يفكر بإزالة الألم عن هذا العالم، عندما وصل أحس أن ثمة هاجساً يتملكه لأن يحصي عدد ذوي الاحتياجات الخاصة الموجودين في هذا العالم أو في بلده على أقل تقدير، شعور غريب، لكنه فكر برؤية أكثر اتساعاً عن السبب الذي خلق من أجله الألم وراح يطالع المدى من خلال نافذة شقته، لماذا هذا التشوه الخلقي؟ لمَ التخلف والعصاب الذهني؟ لماذا هذه الإهانة لقيمة الإنسان وزعزعة وجوده؟ استدار نحو الصور العلمية المعلقة في غرفته، كان يدقق في تفاصيلها وعن فداحة العذاب الذي استقلت براثنه في مواضع عديدة منها، أيّد رؤية إيسلا في مضمره تسامت نظرته لها، تعالى صوته الداخلي لتصله كلماتها:

"سننطلق لتغيير العالم يا دكتور، انتظرني بعد ساعة من الآن، ستسمعني وتعيّنني في سرك"

أخبَرَته بموعد اللقاء، أكمل ما عليه من مهام، أخذ ملف المشروع موكلاً لهُ عناية كبيرة، عندما وصل إلى بيت إيسلا استقبلته بحفاوة، ثمَّ قادته إلى ممر في نهاية المنزل، لتُدخلُه قاعة كبيرة مزودةً بلوائح إلكترونية ومرتبطة بالأنترنيت، كانت صور الخلايا والأعضاء معلقة بكثرة وثمة مقاساتٍ جينية تظهر عبر الشاشات بصورة

مستمرة، تمعّن وراشو بعينين كاشفتين عن محتوى المكان، سألها:

- هل هذا مشغلك يا دكتورة؟

- إنّه مكاني الأثير الذي أحاول أن أصدّره للعالم.

لحظتها ظهرت عن طريق إحدى الشاشات المواتية سيدة وقورة تدعى لوليتا عرّفتها عليّ لتهمس لي أنها أحدى أفضل ثلاث جراحات في العالم ومختصة في استئصال خلايا الدماغ التالفة، ستساعدنا في ترميم أدمغة العالم المعطوبة، تحدثتْ معها باقتضاب غداً عند الساعة السابعة مساء سيكون موعدنا، تقدمتْ قليلاً نحو الطاولة لتكبس على زرٍ معين بإحضار الولدين، تفضل يا دكتور، بعد أن فسحت الطريق بإيماءة من يدها، سرنا بضع خطوات مغيرة الستارة لجهةٍ مخالفة لأجد كماً مهولاً من أشعّات السونار المستقلة باتجاهين متقابلين، هذه حالة مارتون وهذه لأرون، أنظر يا دكتور، كيف هو بناء الخلية المعلولة؟ وكيف أخذت معها باقي الخلايا النشطة؟ قد يستقر الهدم عند نقطةٍ معينة كما في حالة الأول عن طريق بعض العلاجات التي تحدّ من عمله وركود قواه في الدماغ، لكنه يسير وإن كان بتباطؤ بالنسبة للثاني، في متلازمة هيجن ثمة ضربات قوية على الجهة اليمنى

للدماغ، استقرأت سلالة أبويهما وأقربائهما من العائلتين كانت غير مصابة بيد أن ثمة طفرة وراثية لحقت بهما وهذا ما تأكدت منه، هذه خلايا أبويهما سليمة جداً لا تعاني من أيّ تصدّع، سألها وارشو عن مكان إجراء العملية:

- في صالة مخصصة للعمليات من هذه القاعة مجهزة بأحدث الأجهزة الطبية وستكون العملية مصوّرة أيضاً حال التيقن بنجاحها، هل تشعر بالبرد؟ سأحضر لك فنجاناً من القهوة علّه يفي الغرض.

استفسر عبر حديثها:

- لماذا لم تؤيدي فكرة ضخ السائل الشعوري في الروبوت؟ غير أنّه سكت برهة هاماً بملامحها المستقرة ليردفها بسؤال مباغت، أحسست أن الدكتورة مايانا تراودها حقيقة أيامنا القادمة.

- هل حلمتْ بك أو أخبرتك برؤية معينة -تقول إيسلا-؟

- نعم نعم.

- إذا هي التي أخذت خاطرة كانت فارة من سعة المخيال لتتماهى معها في منامها.

- هل تمنيتها معنا؟

- بالطبع، ستكون حليفتنا أنا متأكد يا دكتورة.

- إذا أخلِص نواياك، وأكشف عن سرك الروحي إليها.

بعد أن غادر وارشو تبيّن أن بحوزته حفنة من الرسائل الهوائية كانت تصله لعلها من أناس تخاطروا معه بهذا الشأن، أنشغل ذهنه بمايانا متماهياً مع وجهتها التي صدّرتها نحوه كانساً من مخياله جميع المتعلقات الدائرة وراح يلتقط جملها الطائرة ليستقر عندها، عرف ما كانت تضمره وكأن رسائلها عبَرَت بنواياه المخلصة وموجهاتها العارفة صفة الإشارة لتنتمي إليه، في اليوم التالي حرص على أن ينفرد بها غير أنّه لم يجدها، بحث عنها في مركز الأبحاث، أحسَّ أنّها مكشوفة بالنسبة له، اتصلت به إيسلا تدعوه للمجيء، كان الوقت يمر سريعاً كالجُمل التي تخاطرت معه، حال وصولهِ إلى المنزل تفاجأ أن مايانا كانت من ضمن الحلقة، لحظتها اختصرت ابتسامة إيسلا الكثير من الأسئلة، جلسوا في القاعة نفسها التي كانت محتشدة بصور الخلايا متبوعة بشاشات لوحية تعرض حجمي الدماغ للولدين مع علامات واضحة لمناطق معينة تشير إلى مواطن الخلل، خصّت إيسلا بحديثها مارتون مع التنويه بجدارية تضيء سطح الأشعة:

"هذه هي الخلايا المتصدعة المؤثرة على نشاط الفعل العصبي"

كنا منهمكين معها في كتابة الملاحظات التي تُعنى بحالته من حيث اضمحلال الخلايا المصابة ومدى لياقة الأخريات واستجابتهنَّ إزاء هذا الخلل، نوّهت إيسلا إلى إجراء بصمات الكترونية للخلايا الناصحة بعد أن نزيل الخلايا المضروبة لتحل محلها، اعترض وارشوا على وسيلة اتخاذ البصمة الإلكترونية كونها تأخذ مقدار المساحة التي تعنى بالحجم والثقل للخلية الأصلية لا الجانب الوظيفي وما يتمخض عنه من حركة وتصرّف فيزيائي الذي ينتجه هذا الجسم، عدّل عن جلسته بعد أن اجتاز مثابة الطاولة:

"إننا لا نريد أن نحصل فقط على مقاسات الجسم الذي نحتاجه بل جوهره وعمله أيضاً وهذا الذي نسعى إليه أولاً، وبما إننا رصدنا مواطن العِلة في عدد من الخلايا لذا يجب علينا أن نقتلعها من مكانها كونها تالفة لنتوجه إلى الاستعاضة عنها"

تأمل ملامحهم المتسمرة، ليكمل حديثه:

نحاول أن نشتل زرعاً جديداً له القابلية على إعطاء الصورة الحقيقية للعقل، تحدّثَ وكأنه ألغى مشروعه الذي يعنى بالعاطفة، انبرت مايانا قائلة:

- إننا إزاء فتح طبي عظيم لماذا لا يفكر المجمع بتجميد خلايا الدماغ؟

- سيكون ذلك -قالت لوليتا- حال استئصالنا الألم وإرجاع الإنسان الرأسي على السطح إلى وضعه الطبيعي.

بادرت إيسلا:

إنها من أصعب المراحل التي يمر به العالم، لعلنا نعيد ترميم الإنسان الحالي وقد نعمل على فحصٍ تام وكلي فيما بعد يشتمل على معرفة صلاحية الحيامن والبيوض لإزالة التشوهات التي تسبق عملية نمو الجنين واكتماله في رَحِم المرأة لنقتص منها ونلغي براثنها منذ البداية وهذه تخضع إلى السمات الوراثية التي يحملها الزوجان، إنها العتبة الأولى يا سادة، علينا أن نمسك أولاً بمن هو معنا لنعالجه.

أسهمت النظر نحو وارشو لتكمل حديثها:

العوامل الوراثية تخص الصفات جميعها وقد تتباين بين جيل وآخر، السلالة واحدة نعم، وهذا لا خلاف عليه، لكننا وبحسب كلام الدكتور وارشو بحاجة إلى

خلايا طازجة من السلالة نفسها تحل محل الخلايا التالفة، تأمل وارشو كلامها ليفصح عن رأيه:

- نعم هذا صحيح، وأنا أؤكد ذلك.

أردفت مايانا:

- لكن مهلاً، هل أنتم بحاجة إلى خلايا تنجز الفعل والوظيفة لتندرج في الدماغ وتستقر في مكان الخلايا التالفة؟ ومن يضمن لنا أن الخلايا المستعاضة تقوم بالمهمة عينها؟ نحن نريد تأهيل الإنسان من دون إضافة أو استحداث هل توافقونني الرأي؟

صمتت الحلقة ليصرّح وارشو بعد أن تمتم بكلماتٍ سمعها الجميع:

- نحن إزاء عملية تشويه للإنسان وليس إعادة تهيئته، ومن هو المتبرع؟ وفي حال لو لم نحصل عليه ما الذي سنفعله؟ من الضروري تجهيز خلية تؤدي الوظيفة نفسها بصورتها الصحيحة، المقاس ليس مشكلة، ثمة خلايا في الدماغ لها حجومٌ واحدة لكن المهام تختلف، أيّدت إيسلا كلامه بإيماءة من رأسها -يستمر ويقول- يجب علينا أن نشتغل على خوارزمية رياضياتية ذكية نعطي إحداثياتها، لنصنّع خلية مرتبطة ارتباطاً فعلياً بتقنية الذكاء الاصطناعي وهذه تحتاج إلى خبرة برمجية ومن ثم

نطبقها على أرض الواقع وحتى لا يكون كلامنا مجرد ادعاء، فتعديل الأمواج الصوتية وتجسيد الرموز الكاريكاتيرية والمجسمات ثلاثية الأبعاد كلها خاضعة إلى هذه التقنية، سكتت الحلقة حيال ما عرضه وارشو، لتخبرهم إيسلا بعد أن أطرقت:

- الطريق طويل يا سادة ويحتاج إلى عملٍ مضن لكن همتنا لم يخالطها الوهن، أنا متأكدة من ذلك، تمضي بحديثها، إذن نحن إزاء فعل ووظيفة وليس مجرد جسم نملأ به الحيز المعلول، ومن أين نأتي بالوظيفة يا دكتور؟ هل لك أن تفسّر ذلك في حال لو احتكما إلى تقنية الذكاء الاصطناعي ووجدنا ضالتنا بها:

- نحن نعرف بحكم عملنا في المجال البحثي الطبي أنَّ كلَّ خلية في جسم الإنسان لها عملٌ معينٌ وهذا شيءٌ لا خلاف عليه، بما أن حيازة الجانب الهندسي مضمون عن طريق البصمة الإلكترونية للخلايا المتشابهة من حيث معماريتها والمساحة المحددة لها، ثمة شيفرة مرمّزة تكتب بلغاتٍ برمجية معينة نحن من نعطي خصائصها المخطط لها ومسارها المعني للعمل ليدوّنه المختص، بالتالي نبث إيعازاً أو تعليمة بوظيفة الخلية لتكون جاهزة،

تحمّس وارشو لحظتها وكأنه أمسك باليقين وراح يطرحه بهذه الحيوية.

- وكم عمر الخلية يا ترى؟ -تقول مايانا-.

- كل هذه الأمور تذكر في الشيفرة البرمجية، بل ثمة مميزات أخرى لو أردنا أن نمنحها لها، مثل الجودة أو زيادة في سرعة اتخاذ القرار المناط بها، تقبّلت الحلقة ما قاله وارشو بعد أن تبنى طرحاً تقنياً مهماً جزءاً كبيراً منه ناجمٌ عن رؤية تكنولوجية بحتة، لتنهض مايانا من مكانها وراحت تعاين الخلايا الظاهرة على الشاشة اللوحية محاولة أن تأتي بمسوغٍ لهذا الرأي.

- لكن يا دكتور ألم نتفق على عدم إعطاء بعدٍ مضافٍ إلى الخلية ولم لا نلتزم بأخذ الخلايا النشطة من سلالتهم؟ -لتؤيد كلامها إيسلا-.

- نعم هذا صحيح لكن من يضمن لنا أن السلالة المعنية بالحالة تكون خلاياها ذات فعالية جيدة وقدرة عالية لنتأكد من حيويتها بعد إتمام العملية؟ ومن هو الشخص الذي يغامر بعملية فتح الدماغ مانحاً عافيته للآخر؟ وإن حصل ذلك، ألا تتوقعون ثمة أعراض جانبية يتعرض لها الشخص الواهب لخلاياه ولو بعد حين،

مسألة نقل الخلايا من مكانها وإرجاعها مرة أخرى لها مضاعفاتها، والدكتورة لوليتا تعرف هذا الشي جيداً.

- ولِمَ لا نعطي إيعازات تحفّز وتثير جودة الخلايا المأخوذة من سلالتهم في حال لو استبعدنا تقنية الذكاء الاصطناعي، نحن من شخصنا محتواها -تقول إيسلا- فقد نجد أنها طريقة نافعة تعوّض عن محتوى الخلايا المريضة بزيادة خصائصها الإيجابية، موجهة كلامها إلى وارشو الذي بدأت ملامح التذمر واضحة عليه.

- وهل نعطي ضماناً بذلك بعد أن تتم عمليه فتح الدماغ للطرفين؟ استقام وارشو من مكانه، نحن نريد أن نغيّر العالم من الناحية الطبية من دون خسائر تذكر أو آثار جانبية، سأعمل قراءةً أولية حول هذا المضمون وأخبركم بذلك في الاجتماع المقبل، كذلك علينا أن ننشئ موقعاً الكترونيا يتصل بأعضاء الحلقة لندون به المستجدات، بعد أن غادروا، كان استعداد وارشو نهماً، حاولت إيسلا أن تتصل معه تخاطرياً غير أنّها لم تستطع، كان ذهنه منصباً نحو فكرته متأملا في حال الولدين والكثير من أمثالهم، احتجَّ عن سبب اللوعة المصاحبة للمرضى وعن مخاضهم النفسي غير أنه استعاد ثقته بجملة "سيتوقف الألم أيّها العالم المتشائم"، وفي غداة اليوم التالي أراد أن

يتصل بصديقه كابي المدرس في إحدى الجامعات، الذي عرف بذكائه وفطنته في المجال البرمجي لكنه أرجأ غايته فقد اتجه إلى مكان إقامته في شارع الفينين، صعد إلى شقته بالحال ليواجهه كابي:

"ألم أقل لك أن التكنولوجيا هي التي تدير شأن العالم، القادم لنا يا وارشو وتصافحا بالحال"

استغرب وارشو حيال الذي قاله لكنه أفتعل غير ذلك من دون أن يمسك بحديث صاحبه، تراءت له إيسلا بتمثلات متعددة احتوت هاجس المكان، انتفض في سره مستعيداً ارتسامات الصور الواضحة المعلّقة على الجدران غير أنها عاودت له بسياقٍ مغاير علّه السؤال الذي ظل يطالعه، متى يتوقف الألم؟ استقام من مكانه متطلعاً بالجداريات ذات الحجوم الصغيرة كان أغلبها لدمى غريبة بعض الشيء هكذا ظنها أول الأمر، أغلبها لوحات لا تدل على عمر معين، ولمناظر طبيعية خارجة عن المألوف كأن يكون شجرة مخضّرة وسط فناء خال من أي حياة تذكر أو بيت ماثل في الفراغ فضلاً عن هيئات بشرية لها أكثر من طابع، كفوف متعددة في قوامٍ بشري واحد أو منخر يعتلي العينين، نواجذ مسطحة.

- أنا الذي رسمتها بفعل التقنية الجديد -بادره كابي بذلك-:

أفكارك الآن يا وارشو لها مدونتها الذكية التي تقترح وهنا تكون فاعلية التقنيات الجديدة مباشرة في التنفيذ، أجلس سأعمل لك قهوة الخورشين التي تحبها، عزم وارشو بنواياه المتقصية أن يخاطر إيسلا لكن لم يصله شيء منها، دُهش حال تفحصه صورة معينة لدماغ بهيئة كاملة يتوسط مساحة فارغة، لم يعِي غرضه في بادئ الأمر، استدار إلى الناحية المقابلة ليشاهد تخطيطات لهياكل بشرية وبعض من الأعضاء الحيوية وأجسام منكفئة غير متناسقة موضوعة على المنضدة، ظنَّ أنّها رسومات لا حاجة لها أو لعلها اهتمامات فنية تابعة لصديقه، أحضر كابي القهوة كان وارشو متحفزاً للحديث عن فكرته لكن الصورة المعلقة للدماغ لم تبرح مخيلته:

- ما هذا يا كابي؟

- إنّه الدماغ.

- وما مقصده؟

- صورة ذكية أخرجتها الآلة يا وارشو كنتُ قد صممت برنامجاً حول تجميع الأعضاء الحيوية المتوارية كالقلب والكبد والكلى والدماغ في قوام الكائن البشري،

وهي عملية صياغة وتركيب برمجية غير أني أرجأت ذلك لوقت آخر كونه يحتاج لعمل شاق، وهذا أشبه بالروبوت المرّكب تقنياً على وفق لغة برمجية معينة مثل الذي تستخدم في الألعاب الذهنية تبعاً لإعدادات وإيعازات ناتجة عن شيفرة معينة، ألم أقل لك أن الفكرة تنفذ على الحاسوب، بالحال شرّع وارشو بالحديث حول مشروعه واضعاً التفاصيل جميعها التي عنيت بذلك وعن الفريق العلمي ومدى شغفه للتغيير إلا أنّه لم يقل له عن ماهية التخاطر، كان كابي يصغي لحديثه المتوهج متأملاً ملامحه الممسكة بعبارة "سنغير العالم حال توقف الألم"، تمادى إلى حيث مكان اللوحة التي رسم في منتصفها الدماغ محدقاً بها مليا، هل لنا أن نعيد ترميمك من جديد؟ مستديراً إلى وارشو بالحال، أرسل الأوليات في ملفٍ وسأوافيك لاحقاً، في اليوم التالي وبعد مراجعة مستغرقة فهم المقصد، كانت الشيفرة البرمجية تعنى بوظائف الخلايا المنتقاة من قبل الفريق، أوضح وارشو أن بعد الاطلاع على الملف سيوضع لك مقعدٌ ضمن الحلقة لتكون التفاصيل معروضة على الجميع لكنه أصرَّ أن يمضي قدماً في مشروعه، أحكم خارطته البرمجية عبر تحديد الأهداف في خوارزمية معينةٍ على وفق دالة

شـرطية وذلـك بتسـمية أسـم الخليـة المريضـة ووظيفتهـا واهباً لها زمناً غير منتهٍ كما هو موثقٌ في الملف، أخبر وارشـو الفريـق عبـر الموقـع بمسـتجدات الحالـة، عينـوا موعـداً للاجتمـاع بحضـور كـابي الـذي جلـب معـه جهـازاً لخزن البيانات يضم عدته البرمجية، استبشروا خيراً حال عـرض الشـيفرة علـى الشاشـة وتنفيـذ البرنـامج بصـورة بدائية، وقد نوّه إلى وجوب تصنيع خلايا من مادة حركية كهربائيـة لهـا القابليـة علـى انتقـال التعليمـات المناطـة لهـا والتـي تتناسـب مـن حيـث المسـاحة والحجـم مـع طبيعـة الخلايـا المعلولـة وربطهـا بالحاسـوب عبـر موصـلات كهرومغناطيسية بعد أن نتأكد من تأدية غرضها لنضمن أن شـكل الخلايـا ومضـمونها قـد اكتمـل مـن حيـث المـادة والمهمـة، وقـد كُيّفـت الخلايـا المصـنعة علـى وفـق طقـس الـدماغ، مشـيراً إلـى أن طريقـة نقـل الشـيفرة عبـر الموصـل لحظة الانتهاء من إزالة الخلايا التالفة من الدماغ يحتاج إلى وقتٍ كاف كما قلتُ للدكتور وارشو، علّقت مايانا:

- لمَ لا نعمل على ذلك قبل البدء بالعملية؟ أي نـودع الكـود الـوظيفي فـي الخليـة قبـل أن نضـعها بالـدماغ ونـدخرها فـي بـرَّادٍ مهيـأ لـذلك لتكـون كاملـة بمهمتهـا؟

سكت كابي، لتجيب لوليتا:

- وهل تضمنين أنه حال إيداع الخلية بكامل وظائفها تتلاءم مع محيطها الآني من دون آثار صحية؟ فدخول جسمٍ غريبٍ بخصائص حيوية يحتاج إلى استقرار عام وانسجام ما بين طبيعة الجسم القادم بحمولة فيزيائية وآلية المكان الذي يحتويه.

تهيأ الفريق للعملية، وقع الاختيار على أرون المصاب بمتلازمة هيجن، أجروا مسحاً أخيراً حول مكان الخلايا المنهارة، كان كابي بمكان قريب من غرفة العمليات، عدَّ حاسوبه وخوارزميته البرمجية، باشرت الدكتورة لوليتا بفتح الدماغ، كانت العملية تُبَثُ مباشرة للفريق الجالس في القاعة لحظتها شعر بالسعادة التي تشوبها الخشية، بعد أن استأصلت الخلايا المعلولة وبينما كان جسد الخلايا المصنّعة موضوعاً بثلاجة طبية مكيفة على وفق موقعها في الدماغ، أعطت إشارة لكابي بأن ينفذ حال إيداع الخلايا في مكانها الصحيح وفعلاً ربط الوصلات من أحد أطرافها في الحاسوب وشُكلت الأخرى في الخلايا ليقوم بأنزال وظائفها تدريجياً، استمرت العملية ست عشرة ساعة، كان أرون خاضعاً للعناية المركزة، بعد أن أنتهى البرنامج ونفذ على شاشة الحاسوب أوعز كابي للوليتا بانتهاء عملهِ، اجتهدت بأن تخيط الدماغ ورزم

حـواف الجـرح بصـورة كاملـة، فـي خضـم تسـعين يومـاً وبمـراس العـلاج الطبيعـي وتكثيـف الإيعـازات المحفـزة لعمل الخلايا وتنشيطها تحقق الحلم بنسبة ستين بالمائة، وقد بيّن الفريق أنه في الأيام القادمة سينعم أرون بالشفاء بصـورة تامـة، تناولـت وسـائل الإعـلام الحـدث العلمـي العظيم وقد أُجريَ مع الفريق أكثر من لقاء وحوار خُطَّ على أثره، بثت كافة التفاصيل المعنية بنجاح المشروع علـى القنـوات الرسـمية مـن ضـمنها العمليـة أيضـاً، حـال إشاعة هذا المنجز العلمي الفخم، تحققت نجاحات كبيرة حـول هـذا المضـمون فيمـا بعـد، باشـرت إيسـلا بحكـم الدائرة العلمية التي تعمل بها بفحص الحيامن المخصبة وتعيـين التشـوهات وإزالتهـا تقلـيلاً للخطـر القـادم الـذي يصاحب الإنسان، مكللة ذلك بشعار الفريق" لا خطر ولا تشوهات بعد الآن"، كـان وارشـو وفريقـه سـعداء خصوصـاً بعد تكريمهم من قبل المؤسسات العلمية العالمية وعدّهم مـن رواد هـذا المجـال فضـلاً عـن إشـادة المركـز البحثـي العلمـي بهـم، أحـسَّ وارشـو أن سـمة التخـاطر مـا زالـت ملازمة له كونه يشعر حال توليه جهة معينة بتماهي رسائل عـابرة لينغـرس محتواهـا فـي ذهنـه أو يعلِـق شـيء مـن معالمها، غير أن رسائل مختلفة في طرحها قصدته لمرات

عديدة توقف عندها كثيراً، هل أن أمحاء الخطر يقي الإنسان من الموت؟ وهل أن الخطر العضوي وحده المؤهل للفناء؟ وما هو معيار الخطر بالنسبة إليك؟ أرجو أن تستدل على الخطر الحقيقي الذي يلاحقنا، راود وارشو شعورٌ مخيفٌ من أنّه إزاء خوارزمية غريبة تبحث عن جوهر الخطر، ما معناه؟ وما هي ظروفه؟ هل أن العلم كاف لأزاحته فيما إذا ادعينا بأنه الوحيد وبجميع مساربه المؤدي للهلاك، ومن هم دعاته؟ علينا أن نصنّع خوارزمية تخترق النفس البشرية للوصول إلى الحقيقة، لكن هل سنشعر بالطمأنينة بعدها، هكذا فكر وارشو متأملاً صورة العقل المتصحر عند صاحبه كابي مهموماً بفداحة الانحسار الذي ينتظر الإنسان وتداعيات الوحشة والتشاؤم الكلي المؤثرة على كينونته فيما بعد على الرغم من سعة مقتضيات العلم والتكنولوجيا التي تعيّن مصيره.

مُتنزَّهُ الغائبين

لَـمْ يكـنْ شـأناً عـابراً أن يعـدّوه مـن المصـابين بحمّـى النفس واضطرابها، بل على العكس من ذلك كونه معتداً بوحدته، وحريصاً أن يُنمّي ذلك أملاً بابتعاده عن عيون المدينة، فلنقل أنّه صاحب خصوصية لا يفهمها الآخرون، أو ربما من المتشائمين الغلاة في نظرهم، ليكون خروجه من بيته -الواقعِ قبالة مقبرة المدينة- ضرباً مغايراً، تبعاً لاعتبارات الأيـام السـالفة التـي اختصّـته بـوتيرة واحـدة، وراحـت تجعلـه بنسـق معـين فـي طريقـة تصـرفه، أو ممارساته الظاهرة للعيان، وإن حصل ذلك بتخطّيه عتبة الدار فإنّه لا يجتاز بمسيرة البيوت المتجاورة الموزَّعة بمسار منهك من مكان إقامته، لتتثاقل خطواتُه عند شجرة السدر المائزة بمكانها وتفرُّعاتها المتداخلة، متوقفاً عندها برهـة دون أن يعطـي لنفسـه قسـطاً كافيـاً مـن الـتمعُّن، أو يشرك ملامح السؤال من خلال النظر بالماحول، وكأنه يراهن على ما استقطع من الوقت في الرواح والمجيء، متحاشياً تكليم من يصادفه، وفيما لو قصده أحد المارة

كشف عن محيّاه بابتسامة متوددة كأنها ابتسامة عارف ندية، متجاوباً معه على أتم وجه، ليوثِّق حضوره بهذه الندرة، بَيدَ أنّه كان مواظباً على توديع من اختصَّهم الموت بعناية غريبة، دون أن يهمل أحداً، أو يتقاعس عن ذلك، وكأن الذي وافاه الأجل من خاصَّته المقرَّبين، فعندما تتناهى إلى مسامعه كلمات العفو والمغفرة، أو بعض من الأصوات التي تشكو الفقد ومرارته؛ يهمّ بالخروج مؤتلقاً بملابسٍ جميلة، وبعزيمة ثرّة تكاد أن تتقدم المشيّعين، ليوصله إلى محطَّته الأخيرة معيّناً موقع الشاهدة جيداً، ويغادر قبل أن يختفي الجمع، وكأنه يُمهِّد لشيء ما، مانحاً بعضَ التساؤلات بهذا الحرص والإيثار، أو ربما الدَّهشة في آنٍ واحد، لكنه وقبل أن يخرج من المقبرة يتوقف قليلاً عند مدخلها، يُمعن النظر بغرابة حول مكان الشاهدة التي أضيفت تواً، يتفحص الوجوه المنكسرة تارة، ويمسح بأنظاره الشواهد المتبقية تارة أخرى، ليزمّ بين شفتيه القائضتين سيجارة ويمضي، تاركاً لنا ما تلبّد من الدخان الأبيض الذي سرعان ما يتلاشى، ويغادر وجه اليوم، ويذوي صباحه محفوفاً بمرارة الرحيل، ليحلّ الليل، وتتعرى هدنته الوادعة بما ادَّخره من ملاذات، ومدارات مختلفة، مستبدلاً السكون بعزف

منفرد لعود ملتاع تدق أنغامه مسامع أبناء المدينة بصورة غريبة، وتعمّ المكان أصداؤه دون أن تنقطع، ليجعلنا في حالة مربكة، عزف غير مستقرٍ نحسبه كذلك لكنه مستمرٌ، لا يهدأ ولا يستكين، وكأنه يريد أن يقول شيئاً، أو يثور محتجَّاً، إمعاناً لما نسمعه من تفاقم بصعوده المتواتر ورجعه المتأجِّج، لم يعد لليل سطوته في إغفاءة المدينة، تَبعاً لذلك الانعكاس المروّع الذي بدا وكأنه موعدٌ حتمي ينعقد بعد إيداع المتوفى في المقبرة لتتعالى الهمهمات بجمل التكبير، وبعض من الأدعية المنتقاة، على الرغم من ذلك فإن حدة العزف ما تزال متقدة، ليخفت وينطفئ وهجها عندما يسفِرُ الصبح، مُمهّداً لأول عصفورٍ، حرية الزقزقة، وكأنه تابعٌ لتوقيت كوني لا يقبله التفاوت، صرنا نتطلع بصورة حذرة دون أن نعرف الغاية التي من ورائها حصل ذلك، كيف لنا أن نعي منطلقه؟ وما هي دلالته؟ ولماذا اتخذ من الليل منفذاً له؟ لنقْنِع أنفسنا بآراء نحسبها مجدية بعد أن تعاد الكرّة وتزول كغيرها، فيذهب أثرها وتطلّ علينا من جديد، لنبقى محتدمين بظل هذه الدوَّامة المثيرة للشك والأسئلة، إلا أن رهاننا لبعض من المفاهيم التي انغمرنا بها جعلتنا نبرهن ونعطي دلائل بأن هناك ما يشي بعاقبة الميت السيِّئة، كون الموسيقى وما ترتب

عليها فعلاً مذموماً، وهذا عرف تربّتْ عليه المدينة منذ زمن بعيد، لنعدّه طالعاً واستشرافاً سيئاً، وما عناه بأن هاجس أحدهم قد اخترق وحلّ محله ضرب من المعصية، الشيء المحير أن هناك من عمّدهم الليل بعزفه، وهم من الغارقين بالعفة، والمنتجبين بالرفعة، الغريب في الأمر وبعد أن يودع اليوم صباحه بمتوفٍ، وحفاوة ليلته بهذه الرهبة من الأثر الذي تركه العزف؛ يتهادى الرجل المتشائم بثقة وحزم مُتَّجهاً صوب مقبرة المدينة، دون أن يكترث بمن احتشد، لتنطلق منهم بعض من الكلمات الجارحة التي تصل إليه، يدخل بصورة متفانية، وبجعبته حفنة من الأوراق التي لا نعرف كنهها بالضبط، يتوقف عند الشاهدة الأخيرة المضافة حديثاً، ملتزماً الصمت والنظر دون أن يُظهر شيئاً من ملامحه، وبالحال يقلّب الأوراق التي معه على مهل، ويتابع بنهم تضاريس الشاهدة ملتفتاً إلى المساحات الفارغة التي تنتصف المكان، وكأنه يراجع شيئاً مُعيَّناً بدقة مستوعباً كم الإرهاصات التي غَزتِ الشوارع المحيطة بالمقبرة غير آبه لها، يجلس عند الشاهدة بمسافة معينة على دكَّة غير مستوية رمَّمَتْها الأتربة واختلاجات الطقس، لترتقي عن الأرض بقليل، منشغلاً بتعديل جلسته، ويسرف بأنظاره

نحو موقع الشاهدة، وكأنه يصغي لحديث دمث لا يتورَّع عن إمالة رقبته عنه، يفرد أوراقه، ويبدأ بالكتابة بأناة ورويَّة، وكأنه خبر لقطة معينة يحاول أن يدون تفاصيلها، يبقى على هذهِ الحال إلى أن تحلّ الشمس بضوئها البكر من جميع الاتجاهات، ليرزم أوراقه، ويضعها بالكاد في جيبه، ويهمّ بالرجوع إلى منزله دون أن يُعِير اهتماماً لأحد، بل أن الأعمّ الأغلب أخذتهم مشاغلهم المختلفة، فيمارس هذا الرجل غاية غريبة دون أن نبادر باستنطاقه عمَّا يفعله، وتبقى إشاراتنا حبيسة الألسن والشفاه، منصاعين نحو هذا الاقتراح المحيّر والمفاجئ، الذي شكّل لدينا هاجساً غائماً لا نستطيع أن نفكَّ لغزه، أو نستبق أحداثه، سوى أن نسلّم لأمرٍ لا رجعة فيه، بأن المدينة قد اختصتها المرارة، وأن براثنها ما زالت قائمة لا تفارق حتى الموتى، وهذا خير نذير لعاقبة منكسرة لا يقبلها الشك، فنجترح أحاديث، وأمنيات متشبثين بأبسط العلائم التي تدل على تهافت الشخص المتوفى بعدما يُشيِّعه الليل بموسيقاه مقتنعين بهذا الوعد، نتذكَّر صفاته؛ فنحتجُّ على أكثرها نكاية بالصالح منها، أو نعطي تبريراً كافياً عن موته بهذه الصورة، كأننا نفتعل الكذبة؛ ونصدِّق محتواها غير الصحيح مهمومين بقصدية عن الليلة الأولى

التي تكون عتبة مروعة لعالم آخر، ربما نموّه جوهر الفقد لتسكننا الحيرة بهذا الغرض.

من منحدر متعرِّج مُترَبٍ يغطّ بالسكينة؛ يخرج سباهي العظم من داره المنغرسة في المقبرة، والتي هي عبارة عن حجرة هرمة، وبعض من مرافقها الضرورية، وكأنه ينفلت من إحدى الشواهد التي تحيطه محمَّلاً بمعولهِ والمرِّ الذي لا يفارقه، فهو المتواجد الدائم الذي لا يبرح المكان كحال الموتى الذين استحصلوا سكناهم دونما مغادرة، لتسحبه عبرات الموجوعين بأحبَّتهم متفانياً بإنجاز مُهمَّته على أتمِّ وجه متفرداً بحرصه على إكمال واجب الدفن والتلقين، ومن ثم يُقبل على بناء القبر ليعدّ واجهته بآياتٍ من الذكر الحكيم، متواصلاً بين حين وآخر بسقي مقابر الموتى ومتابعة سيرتهم التعريفية المختصرة، والمدونة على جبهة الشاهدة في حال لو ثلمت بفعل الزمن بتوصية من أهل الميت، إيماناً منهم بأن الموتى لهم عوالمهم الشعورية والحسِّية، فمن مستحضرات هذا الطقس الروحي المؤثث بالشموع، والبخور، وماء الورد التي لها دلالاتها، واستبياناتها في تشكّل الوعي لدى المجتمع كإحدى السمات التي تسهم في إعطاء شكلٍ مغايرٍ عن طبيعة الفناء، أو النظرة المتعبة للموت وماهيته.

كان سباهي يتساءل دونما عناية، أو وعي مُدركاً حال الإلحاح عليه بمتابعة الموتى، إلى أيِّ حد متشبثين هؤلاء بهذه الحياة؟ ألمّ يلعنوا أنفسهم وآباءهم وأرضهم لولادتهم فيها؟! يضحك كثيراً ويهمس في سرّه، حتى الموتى لهم حصَّتهم من النميمة! محيطاً بما يدور من حوله، وكأنه أمينٌ على هذه البقعة، يحفظهم، ويحفظ أماكنهم وتواريخ تواجدهم، دون أن تخذله ذاكرته على الرغم من عمره الذي تخطى السابعة والخمسين، فهو المشبع بالشواهد ورائحة الموت، وما اختزلته الأيام منذ أن ورث عن جده مهنة الدفن، وراح يحيى من خلاها، ناهيك عن كثرة الأحداث التي تصادفه في هذا المكان، لتشعره وكأنه في عالم غيبيٍّ لما يلاقيه من وفرة الأعمال المذمومة، والمغلّفة بأسماء معينة، لتندسَّ في سرّها قطعٌ من الملابس البالية التي لا تتجاوز راحة الكف، محفوفة بخصلات من الشعر، أو أشياء تعود إلى من اختصّه هذا القدر السيء، لِيَشرَع بإفسادها وفكِّها بطرق يعرف كنهها، كأن يقوم بالتبوُّل عليها، أو يقاضيها حرقاً، لاعناً من أيقظها، أو أن تتراءى له شعلة خجلة من الضوء، لكن سرعان ما تتلاشى لسامع صوت صدر من قبله، ليأخذها التيه بعيداً، فما عادت فرائصه ترتعد، أو تحتجّ مخيِّلته

بتخمينات إزاء الذي تقصّده من مراس حياتي، غير مشدوه بالظلمة، وما عنته من ارتباكات تشرك الشك باليقين، وما نسمعه من أن الأرواح التي تثأر وتركل رقدتها متلبِّسة من يقربها، أو يحاكي مقاصدها الروحية فيَخْرج بمحصِّلة حياتية باذخة اغترفها من واقعه الذي أفشى له النهاية الحتمية، لكنه لا يتهاون في الترويج لموضوعات كهذه طمعاً في عدم إطفاء الرؤية المتَّبعة عن المقابر فيما لو توقدت نوايا ممن استتر بالظلمة وراح محموماً بفاحشته، ليفكّ عن نفسه ويمارس غوايته في المقبرة، أو لحاجة ماسة للرزق بطرده الأرواح الشريرة المصاحبة لبعض من النسوة اللواتي تماهين بلعبة البيضة والحجر، فمن باب أن يعبئ ظنه بحقيقة مثلى متيقناً بحدس المكان وما يسوّره من ركود، ليبذر هذه الحقيقة بمخيلته، وينمّيها دون أن يهتزَّ، أو يتراجع، بَيدَ أن الذي شاهده في تلك الليلة جعله يعيد حساباته عن أي شيء سابق، ليغيّب عنه صفة الاحتمال، أو الادعاء في أن يسارع بالانكفاء، أو التخفي دونه، فيمهل عينيه ويقينه قسطاً من التفحص، ومن ثَمَّ ينفض عن قوامه غبرة المشهد والمكان، معتداً بقفزاته التي عبرت هامة الشواهد على أمل الإمساك به لكن دون جدوى، ارتاع لحظتها،

صار يبحث في كل جزءٍ بالمقبرة سالكاً الممرات المختصرة التي لا يعرف مداها إلا هو، مأخوذاً بالشك الذي أنتزع منه إرادته، معلِّلاً الذي حدث بأنه ضرباً من الوهم، همَّ بالرجوع إلى داره دون نية مسبقة، توقف عند شاهدة لا تبعد عن الدار سوى مسافة قصيرة، كانت السماء حاضرة بنجومها المتلألئة، أخذ يجول بأنظاره بصورة مهملة محاولاً أن يعطي لنفسه قدراً من التأني لإعطاء رأي منافٍ، وكأن هناك ما يدعوه بأن يستقرئ ما فاته جيداً، أو أن يرى الأشياء بعين واحدة ليعطي تبريرات جمّة بأن الذي استوقفه ملمحٌ عابرٌ انجرَّت له العين، لكن ما الذي دفعه في أن يساوره الشك بهذه الصورة؟ هل هو الخوف أم الخشية؟ وما الدافع لكليهما! وهو الذي ترسَّخت روحه بالمكان واشتملت عليه، كان سباهي لا يملك صديقاً يبادله الرأي ويحتكم إليه، فضلاً عن ذلك لا يستطيع أن يشي بشيء مخالفٍ لمتبنياته، أو يفنّد طرحاً يزعم أنّه من المسلمات، فهو الممتهن حكاية الظل الذي صار جسداً والأفعى التي تلبّست الروح الواهنة، والقطة التي استحالت إلى صوت طفلة، ليطمئن نفسه بالكاد ويدخل الحجرة، جرياً والوقت الذي تبدد، وأخذ معه الكثير من الأحداث، إلا أنّ المدينة كانت تنظر بقلق

واضطراب للمتوفين، وما يصاحبهم من غموض يعصف بالذهن ليجعله في حالة من الشرود، كان سباهي العظم يتابع الليل بحرص متفحصاً هدنة الشواهد وما يكتنفها من سكون، لكنه ارتعد ذات ليلة مهمومة بالسؤال، وما يجعلها قابلة للدهشة من مشاهدة الرجل الذي تسلل إلى المقبرة في المرة السابقة، كان قد استقر بجلوسه قبالة إحدى الشواهد دونما هلع، أو تأهب من شيءٍ ما، وبحوزته صندوق من الخشب مصمَّم بصورة غريبة، ذي وجه منبسط، وظهر محدَّبٍ ومنفوخ، ممتد منه ساقٌ قصيرة نسبياً، مستقرة عليها خيوط متجاورة ومعقودة بأحكام، موصولة على امتداد الصندوق، ليضعه في حجره، ويداعب خيوطها بأنامله بتودُّدٍ وطلاقة؛ فيخرج الصوت صافياً معتدّاً بوحدته، كان الوقت دون هوية تذكر، يمر الليل وبحوزته شعلة خجلة من الضياء.

التزم سباهي الهدوء حيال هذا الرجل، غير أنّه استقام من جلسته بالحال وراح يعاين المكان ليتهادى ويبتعد تدريجياً عن المقبرة، تسمّر بخوف متسائلاً عن أي سِحر ينشد هذا الشخص؟ وما القوة التي أحاطتني بعناية وراحت تمنعني عن عدم الإمساك به؟ ربما لأنه لم يُودِعْ شيئاً عند الشاهدة كما يفعلُ أغلب السَحَرة الذين

ينتهجون هذا النهج، أو لم تظهر عليه أيّة بوادر للريبة، كان شغوفاً بهذا الذي بين جنباته، ومسترخياً، هل أنّه عمل من نوع آخر؟ تباطأ سباهي فيما يقول مُحدّثاً نفسه لينسلّ الرجل بثقة مهولة ويختفي، لتختفي معه القدرة على اللحاق به، تجوّل حول الشاهدة، ما الذي كان يفعله الرجل في هذا الوقت؟ هل أنّه مصاب بالمسّ؟ ربما لم تكن هيأته تدل على ذلك، شعر بالرعب، أو إحساس غريب ظل يشاطره في اليوم التالي كان مترقّباً مجيئه لكنه لم يأتِ؛ هاله أن ينتظر دونما موعد، صار يُثارُ بقدوم الليل مستشعراً بأن هناك شخصاً يتقصّده ليخترق المكان دون أن يتفوّه بحرف واحد، أو لعلّه طاوع ذاته المتردِّدة؛ فيكون ممن دعتهم يقظتهم للانزواء، متسائلاً عن الدافع الذي مكنّه بأن يتحلى بهذه الجرأة؟ حتى المجانين لهم عوالمهم الفطرية في كيفية التعاطي مع الأشياء بعبث! لكنه لم يكن مجنوناً، يهيم بحركة أنامله الدؤوبة عند طرف ومنتصف الصندوق، وكأنه يناغي طيراً، أو يهمس للريح بأن تتماهى معه، أسئلة تترى احتدَّتْ في ذهنه دون أن يجد لها أجوبة، لذا راح يفتش في مداخل الليل، وشواهده المتناثرة عن الرجل، آملاً بأن يندهه الصوت، أو تلسعه إشارة خفية من هناك، لكن دون جدوى، بقي

على هذه الحال حتى أفرِغ منه مقتنعاً بأن هناك روحاً اغتنمتها الظلمة بعمل قبيح لتندكّ عند القبور متناغمة وعالمها الآخر، سلّم لهذا الأمر على نحو متردد عازماً بأن يغيّب بعضاً من هواجسه لينجو من هذا السفر الغريب، مضت الأيام على حالها بلا مفارقات أو أحداث مؤرقة، وفي ليلة مقمرة تملّكه صوتٌ كأنه النشيج، ذعر من جرائه؛ أحسَّ بأن القبور جميعها منطلق له، كانت الظلمة منغرسة بالمقبرة، ليس ثمة دلالة عينية إلا الصوت وضوء أحول مختل في يده بمثابة عين مبصرة، إلا أنّه أهمله طمعاً بأن لا يثيره ويهرب، لم يعد يتشبَّث بأيَّة التماعة خفية تتأتَّى من هنا أوهناك، مال إلى الجهة اليمنى التي تبعد عن مأواه بمسافة عشرات الشواهد، كان الصوت يتصاعد تدريجياً وكأنه يعطي إمارة يستبق بها صحة الطريق، ليجده يمارس طقسه، توقفَ إزاءه، كان بجلسته المعهودة مصطفياً أحدى الشواهد الفتية منصهراً بالذي معه، دنا منه بحذر جمّ متوثباً كي ينقضّ عليه لكنه أمهله لحين ما ينتهي، ربما الأمر أتى على الرغم من إرادته، فيتوغل الضوء ببطء، ويتوقف الرجل عن عزمه ليباغته بالحال:

- من أنت؟ وما الذي تفعله في المقبرة؟

كان سباهي متوجساً حينها!

- وهل هناك ما يمنعني من الدخول؟، قالها بطمأنينة.

- هل أنت مجنون؟، ألا تشعر بالخوف من الموتى.

- ولما الخوف؟ أنا أؤبن الموتى بالموسيقى.

- هذا عمل قبيح وشيطاني.

- وما هو دليلك؟

- كونه شيئاً غير معمول به البتَّه.

- طيب ما الذي أحسسته حيال سماعك للعزف؟

- ولماذا تسألني هذا السؤال؟

- لأننا بحاجة إلى أن نكون حقيقيين ولا نكبح قوانا الروحية،

- ما الذي تقصده بذلك؟

- أولاً أجبني عن سؤالي.

تلبَّك سباهي والتبس عليه القول، ليسارعه الرجل برده:

شعرتَ أنّك اغتسلتَ بالضوء، وتماهيتَ مع الصفاء، تعالتْ رؤيتُك نحوي أو نحو الذي سمعتَه، إحساس خيلائي لا تستطيع أن تصفه أو ربما لا يفي الكلام غرضه، كونك التزمتَ الصمت حيال ما رأيت، أو لَعلَّه خصّك عنوة، هو الصمت الذي يجترح أسئلة كثيرة دون

أن ينطق، فأنت أبنه الواهن حاول أن تزيل غبار الموتى من حولك لتنجو من هذا السخام الذي ما زلت على قيده، وتمحو ما تعشَّقتَ به وجبلتَ عليه.

- من أنت؟ قالها بحيرة، وما الذي أتى بك إلى هنا في هذا الوقت، لتعيّن شاهدة ما وتهيم بطقسك؟:

- أنا من حفّزك لتكون، وتستدعي لحظة اليقين، فتزاول نفسك من خلالها،

- ما الذي تقصده؟

ما بين الليل والموتى حكاية لا يفقهها إلا الذي زاول الصمتَ في لعبة الحياة الصاخبة، خارجاً حيث الألسن التي تصرخ والآراء المقمَّطة بالسواد، لا وجود للصوت الذي يريد أن يبدِّد المرويات ويهش الأثر في داخلنا، كنتُ ممن تفرّدوا بأن ألعنَ الفجيعة بالموسيقى، وادحر النوائب بالنغم لأدون؛ الأحداث بالنوتات وأطْلِقها للريح ليخالجني شعور بالراحة.

- ما هي النوتات؟

- لغة الطير والشجر.

- وهل هناك لغات مختلفة؟

- بالتأكيد، لكن ثمة لغة مشتركة في هذه الدنيا لها هويتها المشاعة.

- ولماذا تعززها في هذا المكان؟ هذه أرض تغصّ بالموتى.

- وما الضير في ذلك، -تأمَّلَ برهة- وكأنه ينقب عن غرض ثمين، ثم أردف الرجل قائلاً:

- ما هو تفسيرك للموت؟

تمعَّن سباهي فيه بحيطة، متحيّناً فرصة الإجابة، شعر أنّه في مأزق، ليتابع الرجل حديثه:

- أحاول أن أرسم لوحة تعبيرية للموت بأدوات مفعمة بالحياة، لأعطي صورة حية لهذا الفناء المعاش.

- كيف؟

- كل شيء من حولنا هو حي بنسب معينه، لكن النظرة المتَّبعة التي تعنى بالإنسان تحاول أن تكون واهنة، وأحيانا بليدة لتميت، أو تقوّض من عنايتها، الحق لنا أن ننظر للنهاية على أنّها ذروة البداية، وبلوغها على اختلاف ماهيتها وجوهرها، جرب أن تبيد صفة العدم وتغادرها.

- كيف وأنا ملتاع بالموت ومنغمر فيه؟

- أنا لا أتحدث عن الموت بحدّ ذاته، ربما الرؤى والمفاهيم بعموميتها، المشكلة لا تعنيك فقط، أو تخص جماعة بعينها، خذ مثلا: لو تغيّر الطرح المتعارف عليه بتوديع الموتى بالبكاء والنحيب وقلّدناهم الورد

والموسيقى على أنهم ارتحلوا، أو سافروا إلى عالم آخر دون أن نغيّب أرواحهم عنَّا، أو نطرد هواجسهم المنغمسة في الأمكنة، والتي استشعرناها حالما نتأمل ذكراهم بلحظة خالصة بعيدة عن كم الهلع الذي نمارسه، وهذا خلق رفيع بمستواه يتعالى عن النظرة السائدة التي أوصدت النقاش عن الموت بوصفه محواً تاماً، منكبين بفتح المغاليق المتراكمة، لعله يحتاج إلى وئام تام وحالة من الصفاء الذاتي، والإيمان المطلق بجوهر الإنسان فنغرس بمواقعهم الجديدة شجرة ظليلة، أو شُعَباً من نبات الزينة، ونكتب عند مثابة المكان متنزه الغائبين، لنجترح بدائل أخرى للحياة، هل ثمة إحساس مغاير بالنسبة لديك؟

- وما هي بدائل الحياة ؟

- الحياة بعينها.

- طيب.. لماذا لا تطلق غايتك علناً، وتعلنها للملأ، ماذا وجدت في هذا المكان الأخرس؟

- على العكس أنّه مكان ضاج، هالته مخيفة واقتراحه حاسم، ربما وجدت من يصغي إليّ دون أن أعطي لنفسي فرصة للتفكير عن طبيعة الأرض التي وطأتها، ألم أقل

لـك يجـب علينـا أن نطفـئ المفـاهيم التـي تقمصـتنا لنبـث روحاً مشعة ياااا، ما هو اسمك؟

- سباهي العظم، أنا دفان، وما هو أسمك؟

- أنـا الصـوت الـذي يـدعوك للسـؤال، سـتعرفني حتمـاً، سأذهب الآن.

- هل تعود؟

- حالما يغادر أحدٌ منا.

توقـف سـباهي العظـم سـارحاً جـرّاء الحـوار الـذي دار بينـه وبـين الرجـل، أحـسّ بأنـه قـد انّسـل منـه بهـدوء علـى عكـس مـا كانـت نيتـه تصـبو إليـه، أخـذ يفكّـر بـذلك مليـاً محاولاً أن يطبق ما قاله، ويتخذ مساراً بالنظر إلى الأشياء بروحيـة حيـة، غيّـب عـن هاجسـه غمامـة الطـابع المـدلهم، وراح يعـرّف الشـواهد بأصـناف مـن الـورد ذات الـروائح الزكيـة وأشـجار الزينـة، هامـاً بـأن يغيّـر مـا بوسـعه بتمريـر قنوات للري ما بين منافذ وممرات المقبرة، ليواظب على السـقي بصـورة مسـتمرة عازمـاً علـى ذلـك، أصـبح المكـان عبارة عـن مسـاحة مكتنزة بالحياة، لعلَّ هنـاك بعـث جديـد قـد حـل مختلفـاً عـن سـابقه، كانـت أعـين النـاس ممـن يعـودون موتـاهم قـد أصـابها الـذهول لـتعمَّ ملامحهـم الدهشـة، كـانوا يتسـاءلون بهمـس، الغريـب فـي الأمـر أن

أعداد الموتى أخذت بالتزايد، كان الرجل يحضر على نفس موعده، دون أن يخاتل أحداً ممن اجتباهم الرحيل فيشتل سباهي العظم عتباتهم بنهم لا مثيل له، لكنه وقبل أن يبادر بأي شيء، صار يسرف التحديق بنظرة متوازنة ما بين متنزه الغائبين، وبين مكانه الصريح الذي يتواجد فيه مع عامة الناس، لينتابه القلق من أن الأرض التي كان يناغي الشواهد من خلالها أخذت بالتسلل نحو طريق المارَّة، في اليوم التالي، وكالعادة كان خروج الرجل بموعد ثابت، تفاجأ من أن الناس كأنهم شواهد تمشي على قدمٍ وساق، بالحال التزم عوده وأصرَّ أن يعزف علانية دون اكتراثٍ بما سيحدث، غير أنّه التاع من فكرة ألمّت به وهو ما زال منهمكاً بالعزف، أيهما نحن على هذه الأرض؟ لتنزاح عيناه نحو شجرة السدر التي مازالت بكامل هيبتها محتضنة عامة الناس بأسمائهم المعلنة.

وجهة الطير

الـذي حصـل فـي كـامبو مدينـة الضـوء والنسـيم، لـم يحدث بالمرّة على مدى سنين عديدة، ففي صباح العاشر من تموز من العام المنصرم تلبّدت السماء بسحب كثيرة مصـحوبة بسـورةٍ مجنونـة تنتقـل هنـا وهنـاك بمسـافات متباعـدة غير محسوبة، لكـن سـرعان مـا تتضـاءل وتنمّحي حـال توليهـا جهـة معينـة منتزعـة بمرورهـا مهـج الأشـياء وصبغتها.

قبل ما يقارب الخمسين سنة نشر الدكتور برهام بركل أسـتاذ العلـوم الذريـة بحثـاً يتحـدث فيـه عـن استشـرافه بـالظواهر السـلبية التي ستصـاحب الإنسـان وفقـاً لمرحلته جرّاء الخطأ الـذي حصـل في زيـادة نسـبة أعـداد وجبة من اليورانيـوم المخصـب، وقـد نّوه من خـلال محاضـراته في أغلـب الجامعـات العالميـة أن ثمـة أزمـات جسـيمة ستسـتنزف مقـدرات الطبيعـة وتسـتهلكها لتبـدد ملامحهـا وتغير طلتها المعهودة، منوهاً إلى نضـوج الفعل الإجرائي الذي نتج عن كثافة المادة المخصبة وعدم السيطرة عليها،

مؤكداً على إعادة النظر في كيفية التعاطي لمثل هذه القضايا الكبرى وإلا ستؤدي إلى الكارثة ولو بعد حين، توفي برهام بركل وظل بحثه معلقاً.

أحدثت مخلّفات الإشعاع الناتجة عن انفلات الغازات المضرّة المكدسة في مفاعل هيسا اضطرابات بالطقس وانحسار السبل الممكنة لإذابة الخطر الناجم عنه، اضمحلّت الأرض وتفطّرت مخلفة وراءها نكوصاً بالنباتات، مصحوبة باختلاجات في الأنواء الجوية بغير أوانها، لتأخذ بين طياتها الكثير من الأثر الذي عمّد واجهة المدينة، لتكتسي بسحنة رمادية احتلت الوان القارة، فيصاب على أثره أغلب سكانها بنُدب متورمة سرعان ما تنتفخ بصورة بشعة لتتسع على مساحة غير محددة، تثقل من جرائها الحركة وتودي إلى كسل وترهل بالعزيمة، مصحوبة بسعال وقحة ملازمة تبطئ من عمل الجهاز المناعي وتقلل من جودته، هو الحال الذي أغرقهم وجعلهم في مدار متأرجح، كانت النُدب تتورم لتصل إلى الحد الذي تنضح قيحا بنّي اللون غير رائب، ليعاف على أثره الإنسان فيذوي ويصاب بالعفن ويموت كأنه قطعة من اللحم المتحللة، بطبيعة الحال أن بعضاً من الذين اختصتهم هذه النُدب وقاوموا هذه التغيرات

البيولوجية بفعل جهازهم المناعي تصدع جزءٌ من خلايا جهازهم العصبي المسؤول عن إدارة الأنشطة الذهنية، التي تقوّم الهاجس الحسي المعني بتمييز الأشياء مؤثرة على تدوير ذاكرتهم بأزمنة مختلفة، لربما يعاد وعيهم بفترات متعاقبة، لكنهم على الأرجح لم يكونوا أبناء اللحظة الحالية المعبأة بكل تفاصيل الماضي وأحداثه، تبعاً لمحو خزانتهم الزمنية، وكأنهم هبطوا بأوانٍ غير أوانهم، أو بعثوا من جديد إلى هذه الحياة، مما يعني أنهم ليسوا منتمين إلى واقعهم، ليبقوا باحثين عن أناتهم محاولين أن يتعرفوا على قدرهم.

أجسادٌ متغضنةٌ نازفة، وذاكرةٌ خاويةٌ تستكشف قدرها دون معرفة السبيل الناجع لهذا المآل، كانوا لا يستطيعون المشي قدماً إمعاناً للغربة التي منحتهم التيه، وقد يسترجع لهم وعيهم بمدة ليست بالطويلة لحين ما يدركهم حجم الرعب الذي حلَّ بهم وهكذا دواليك إلى أن يقتص منهم الإشعاع بنخر خلاياهم جميعها فتنفصل عنهم ذاكرتهم تماماً ويدورون في المكان دونما محطة يستقرون عندها.

واقعاً أن مدينة كامبو هي الأقرب إلى موقع المفاعل النووي كونها المحطة الأولى التي خبرت هذا الانقلاب الهائل وقد أحدثت ربكاً نقلته جميع وسائل الإعلام، كان

المرصد الفلكي المركزي يرقب ما سيحل من كوارث بيئية جرّاء الإشعاع محذراً العامة دون أن يعطي بدائلَ أو حلولاً، بيد انهم أشاروا إلى أن انتقال الغازات السمية بمسافة عشرة كيلو مترات يخضع لاعتبارات كيميائية معينة، يقدّر بحسب قوة واندفاع الغاز ومدى تغلغله في الهواء وكمية انبعاثه إن قيست بسرعة تماديه ومنسوب كثافته، لذلك طمأن أساتذة الجامعة والعلماء المختصون بهذا الشأن بعد عقدهم اجتماعاً عاجلاً ببيانٍ رسمي، بأن المدن القريبة سوف لن تتأثر في القريب العاجل على أقل تقدير، وفقاً للأدلة العلمية المحتكمة لمعيارية هكذا غازات، وأن كامبو مدينة محظورة، على الرغم من تيقنهم أن تمدد اليورانيوم المخصب له القابلية على استحداث الضرر بصورة لا يتم السيطرة عليه، لكن -ومن باب غرس الطمأنينة في النفوس- تبنى الإعلام هذا الطرح وأشاعه بجميع وسائله، كانت المدينة أشبه بالنُدبة التي تميزها كاميرات الاستطلاع الفلكي لترى عامة الناس وهم يجولون في المكان دونما نية معينه، المحير في الأمر لم تعد عين الكاميرا ترى ما يدور على هذه الأرض بل ثمة ما يشي بانعدام المدينة وإمّحائها.

وجّه الدكتور شاويس -أحد كبار الباحثين في هذا الشأن- بوجوب تنقية الهواء بغاز مضاد لغرض إزالة الغمامة المستحوذة على طبيعة المدينة، لكن المحاولة أتت دون فائدة، كانت كاميرات المرصد الفلكي تظهر المدن التي تحيط بها بعناية، بينما حال التوجه لها يقطع الإرسال وتبدو الصورة مشوشةً، وكأن شيئاً ما يحول دون ذلك ليحار به العقل، برر الدكتور شاويس بقوله: ثمة آثار تولد بصورة مفاجئة وبسرعة هائلة إزاء هذه الغازات، وقد استجدت أمورٌ غاية بالغرابة نتيجة قرب المدينة من المفاعل الذي جعل ضخ الغازات السمية بصورة هائلة وبكميات كبيرة، تحلقت الآراء على بيان الحالة وأخذت جديتها تتسع، وقد أعطوا كمّاً من الحلول المتضاربة كون المسألة لا تحتمل التجارب على أن يكون الحفاظ على ما تبقى من البشر في ظل هذه الكارثة الإنسانية أمراً ضرورياً غير قابل للتهاون، كانت الآراء جميعها لا تفضي إلى نتائج، إلا أن دكتور شاويس راهن على تمادي حجب المدينة واختراق حاجزها الكيمياوي بأن يعبر الخط المؤدي إليها، بعدما أعدَّ بنيّة مسبقة فريقاً مختصاً مكوناً من خمسة أشخاص وقد أوكل لنفسة المهمة معللاً ذلك بفحص المدينة وبيان حجم الضرر الذي أصابها، مهموما

بفداحة الصورة المشوهة التي تنتظر الأرض ومن عليها، التحق الدكتور ماين المختص في علم البيئة، والبروفيسور الطبيب يشاد أستاذ الأورام والغدد، حيث هيأت لهم دائرة الأبحاث النووية طائرة أُعِدت لهذا الغرض، تقاد من طيار مختص يدعى تومه من ضمن الطاقم المعد سلفاً لأزمات كهذه، فضلا عن عدةٍ تقيهم من خطر الغازات السامة والإشعاعات المسرطنة مستعيناً بملبس المقلع الخاص بهذا الشأن مزيداً عليه طبقات أخرى مصنوعة من المواد المقاومة كمصد على أمل أن لا يتسلسل من خلالها أي شيء وأن كان نافذاً، لكنهم انشغلوا بقنينة الأوكسجين ذات الحجم الكبير بضغط مساحتها وزيادة كميتها، كون الرحلة التي عزموا عليها غير معلومة الأجل، أشار الدكتور شاويس إلى تلميذه المقرب وطالب الدكتوراه شامان بأن يسبر هذا المخاض العسير معه، وافق شامان دون تردد، وبينما كان الحديث مستعراً بخصوص هذا الشأن وصل تقريرٌ بانقشاع بسيط لبعض السحب السوداء خفف من حدة الرؤية التي نقلتها كاميرات المركز الفلكي، لم يعر الدكتور شاويس اهتماماً لهذا التقرير، بيد أنه وحال خروج اللجنة انفرد بشامان وأخبره بحلول الكارثة:

- تورع قليلاً يا شامان.. إن هذه السحب التي تخاتل الكاميرات ما هي إلا دليل على نفاد حمولة الأوكسجين في هذه المساحة المحتلة بالموت، وأغلب الظن أن الغازات المشعة ستتمادى نحو مساحات أخرى إذا لم تجد لها مصداً كيميائياً يكبح من جماحها أو يقلل من قابليتها على الوصول.

- ما الذي استدعاك إلى هذا الطرح دكتور، هل ثمة يقين على ما تزعم؟

تفرّس محياه بتمعن وثبات، ليردفه بالحال:

- مقدرة الغازات السمية على التفاعل بالسرعة الممكنة حال التزامها فضاء معيناً لتولد نتائجَ بأوانها أو دهراً من الزمن، ومن سوء الحظ أن قرب المفاعل النووي من مكان الحدث جعلها تخمد كل الطاقة المصاحبة للعيش ومقاومة الإنسان.

- وهل سنجد نباتاً أو شجراً أو إنساناً في هذه المدينة؟

- بالتأكيد، لكن علينا أن نسرع لنقلل الضرر الحاصل الذي سيعم العالم.

استدرك شامان الحديث بمتابعة المعلومات التي تظهر على شاشة العرض بعدما أدار جهاز اللابتوب من على المنضدة، مسترسلاً بتسجيل مستجدات الأحداث التي

لحقت بالمدينة، بينما بقي الدكتور شاويس يحدّق بنتائج التقارير مرة أخرى.

استنفر العالم بأسره بعد علمهم أنَّ فريقاً علمياً سيسبر أغوار هذه المدينة، اتخذت اللجان احتياطاتها وقد أضاء الإعلام هذا الحدث، كان الدكتور شاويس رابط الجأش، لكن ثمة رهبة مصاحبة له يعللها بالمفاجآت التي ستحل لهم ولأنه على اطلاع تام بهذه الجنبة بحسب اختصاصه، لذلك صار يستشرف أموراً غاية بالأهمية دون أن يخبر أحداً، إلا أنَّ بعض الإشارات التي يدركها تلميذه يعرف وقعها فيما بعد، كثيراً ما كان شاويس يفكر عن طبيعة الأجواء التي ستواجههم وعن مخلفات الغازات وضررها التي ستؤثر عليهم في حال لو بانت نجاتهم وخرجوا من هذا المخاض، لكنهم هل سينجون؟، أُعدت لهم طائرة مكيفة بهواء نقي ومحكمة إزاء تسلل ذرات الهواء الملوث ومدى تفاديها لأي عارض مفاجئ وقد جهزت بمعلبات غذائية صحية وقناني الماء المعقم وكثير من الأمور الوقائية، ناهيك عن تهيئة غرفة تحليلات مزودة بمستلزمات طبية حديثة ومستودع لقناني الأوكسجين ذي حمولة ممتازة، فضلا عن ذلك حقنوا أنفسهم بمادة تزيد من قوة مناعتهم، علاوة على تصفية رئتيهم من الشوائب

كأجراء وقائي حال إثارتها لمشاكل الغازات، وقد أجريت لهم كافة التحاليل العامة التي تعنى بنسبة الأوكسجين في الدم، انطلقت الطائرة متجهة نحو مدينة كامبو، كان الفريق يتطلع إلى سحب رمادية كلما اقترب من المدينة على خلاف ما كانت تظهره كاميرات المرصد وقتها، وكأنهم يغوصون في كون خارج عن الطبيعة، كون شاحب عديم اللون، هبطت الطائرة المستكشفة بعيداً عن مفاعل هيسا، ليبدأ الاستعلام عن تدوين المعلومات وأرسالها عبر شبكة الأنترنيت مبينين لهم أدق التفاصيل وأكثرها فاعلية، على أمل أن يطلع من هم في المرصد ليتعرفوا على آخر التطورات، تقدم أعضاء الفريق بملبسهم الثقيل والمختلف ليشاهدوا وجوهاً متغضنةً بندب متورمة، الكثير منهم لم يأبه بتواجدهم ونوّه الدكتور شاويس بفقدانهم الذاكرة اللحظي، بينما بقي القليل منهم في حالة افتقار للحديث والذي لم يلق سوى الهروب، تثاقلت خطواتهم لكنهم اتصلوا بما رأوه مناسباً لمعرفة الأمر، كانت مدينة كامبو كئيبة وموحشة، بشر بقوى خائرة، تقدم نحوهم الدكتور شاويس بعدما ظهر له منسوب الأوكسجين بنسبة ضئيلة من خلال الجهاز المعلق على متن الطائرة، أخذ كل من أعضاء

الفريق جهة معينة ليكتبوا بهمة ومسؤولية عن مدى صلاحية المكان بحسب اختصاصاتهم بينما بقي تومه سائق الطائرة منحازاً لكرسيه ومقوده، كان شامان برفقة أستاذه وهو يتطلع للما حول بصورة راكزة وما أثرت الغازات المشعة به، أصرَّ الدكتور يشاد أن يأخذ أحداً من أبناء المدينة إلى غرفة التحليل ليتعرف أكثر على الأعراض الجانبية التي لحقت بهم، كانت كافة التحليلات تجري عن طريق الشهيق والزفير وحال إخضاعه لجهاز السونار وجده مغيباً عن أوانه، تجزؤ خلايا الدماغ مع اضمحلال الرئتين بنسب متفاوتة، أنتبه شامان إلى أستاذه الذي كان منهمكاً في معاينة السائل النازف من النُدب ومطالباً الدكتور يشاد بمزيد من النتائج ليباغته بسؤال عبر المايك المزروع في الجنبة اليسرى من الرأس:

- سيموتون كلهم "قالها بصوره منكسرة"

- أتوقع ذلك، لكن لا تيأس، قدم آخر ورقة رابحة في جعبتك واترك للريح خطاها، إنَّه الإنسان يا شامان.

أكمل الدكتور يشاد من الرجل الذي كانت عافيته منهكة مع ملازمة القحة المصاحبة له، أخذ الدكتور يامن عينة من الأرض لفحصها وأرسال النتائج إلى المركز

العام، كانت التربة متحللة ذات لون قمحي تميل إلى السواد، بعد تركها في جهاز الهيدروميتر وإضافة بعض من المحاليل المذابة لإعطاء النتاج بدقة عالية، انتبه الدكتور شاويس إلى فريقه متمتماً معهم بتريث، كل شيء ميت هنا، إلا أن رمقاً يحلق فيما بيننا علينا أن نوسعه أو نحافظ عليه على الأقل، أمعن الدكتور يامن بالنتائج متوقفاً كثيراً عند مضمونها:

- يجب أن نعلم جيدا بأن الأرض ستنهار عن قريب نتيجة تبدد نسيجها.

كانت ملامحنا المخبوءة لا تعطي دلالة عينية عما يطرح من أراء، بسبب اللباس الذي يقينا من ضرر الإشعاع، بيد أن تسارع الجمل التي تخرج بلحظتها المنسابة وإيقاعها المرتبك؛ لها وقعها، ناهيك عن الصمت المروع الذي يتقمصنا جراء ما نسمعه ونراه، كان مسار الفريق بعدته وعدده يسير وفقاً لتذبذب الجهاز الذي يستقرئ منسوب الخطر، وقد أشار بأن الجانب الجنوبي من المدينة والذي يبعد ثمانين كيلومتراً لم يصله مضار الإشعاع بجميع علله فما زال بعضهم قد احتفظوا بجزء من ذاكرتهم، سارع الفريق على أمل أن ينقذوا ما باستطاعتهم إنقاذه، انطلقت الطائرة نحو الأطراف، أغلب

السكان عديمي اللون وبسحنة واحدة تقريباً، لا يعرفون من نحن بل أصابتهم الرهبة والحذر من هيأتنا التي توحي بأننا من رواد الفضاء، ولم يكن بوسعنا أن نطرح ثقة اكبر بتغيير مظهرنا الخارجي خوفاً من الإشعاع، كانت النُدب موزعة على أجسامهم بصورة مبعثرة وواضحة، لكن ذاكرتهم ما زالت غير مترامية، اقتربنا منهم جميعنا كلٌّ أخذ يستكشف في اتجاه، إلا أن الدكتور شاويس اقترب من أحدهم كان متوسط العمر على أمل معرفة مدى تقبله للحالة الدائرة أو لعله أراد أن يعرف مدى ادراك الآخر إزاء هذه الكارثة، توقف عنده بعدما ضغط زر المايك منوها إلى شامان أن يستدير قبالة الرجل علـه يلتقط تفصيلة معينة يستدل من خلالها، بيد أن الرجل أحس بهالة غريبة تسوره لينسحب بالحال لكن شامان نوه له بكثير من المفردات المطمئنة:

- لا تقلق نحن جئنا لإنقاذكم.

- من ماذا؟ ولماذا أنتم بهذا اللباس؟

لحظتها كان استفساره أشبه بالصدمة، معللين ذلك بان لوثة الغازات بدأت باجتزاء خلاياه العصبية بصورة مفاجئة، بيد أن الدكتور شاويس تقصّد ما قاله:

- وهل لك أن تفي غرض هذا الموت.

- إنها زوبعة كبيرة يا سيد.

- طيب تعال نتحاور معك.

تجمع من معه بينما بقي بعضهم يطوفون من حولنا دونما دراية، وصوت يصدر من كلب ملتاع، كانت الوجوه الممتلئة بالنُدب متجهمة أو لعلها هكذا بلا تصنع أو ازدراء مفتعل.

- هل هناك من مات من بينكم؟

- نعم كونهم أصيبوا بالجنون، وهذه حالة نادرة يا سيد، ولك أن ترى ذلك، يساقطون الواحد تلو الآخر، كلنا سنموت. "قالها وهو في كامل هيبته" وأضاف: بل حتى الكلب الذي يعوي والأشجار التي تظللنا، ألا ترى اصفرار أوراقها.

- وهل متأكد من موتك و موت الجميع؟

- بالتأكيد.

- من أين أتاك كل هذا اليقين، قلنا لك سننقذكم.

كان صوت الكلب يضفي روحاً حية في المكان على الرغم من عوائهِ الذي يتحول إلى استغاثة، هذا ما شعرت به، بينما بقي شامان ممعنا النظر إلى الآخرين وطبيعة الطقس، ازددت شكا في أن أطالع حقيقة هذا الشخص وعن فطنة ما قاله، حسبت ثمة ما يشي بوهن في عقله

نتيجة الآثار الجسيمة التي لحقت به، كانت النُدب متورمة في وجهه وبعضٍ من جسده، لكن كلامه بدا متسقاً وجاداً، فيما لو أبعدنا الكثير من تداعيات المكان، لم تكن هيأته تبوح بأنه يطلق الأحكام عبثاً، بل لم يكن بمقدوري أن أتهاون مع ما يقول لأترفع عن النقاش كحيلة واهية على أنه ضرب من الهذر والجنون، تتبعت قنينة الأوكسجين التي بحوزتي دون أن أعرف السبب:

- ستموتون جميعكم جراء هذا الهواء المسموم إن لم تطاوعونا لإسعاف ما بقي منكم.

- ومن الذي قتل هؤلاء، هل الهواء؟

كان وقع سؤاله عجيباً بالنسبة لي، لينوه جرس المنبه المرتبط بالطائرة أن الإرسال قد انقطع مع مركز الأبحاث لأسباب تقنية أو ربما بفعل الإشعاع، انحسر الفريق متوجهاً نحو الطائرة، لأشير إلى شامان والدكتور يامن أن يتقصدوا الجمع معهم عسى أن تحل المشكلة لنقلهم خارج المدينة، كانت النتائج تعرض مباشرة من خلال شاشة العرض المتصلة بجهاز قياس نسبة الإشعاع في المكان، أطرق شامان بصوت خفيض بعدما أرجع جهاز المايك:

- المصابون بحاجة إلى مزيد من الأوكسجين ليتسنى لنا متابعة حالتهم وإرسالهم إلى المركز فيما بعد.

كان يشاد منشدّا في إجراء التحاليل ومتابعة تورم النُدب، فضلاً عن مدهم بعلب تحوي على محلول يزيد من مناعتهم، بينما ثابر يامن بأخذ مسحات للتربة من مناطق مختلفة، أصبح لهاث شاويس يستبق الآخرين بسيل من الأسئلة الصامتة التي يظهر هاجسها عبر المايك، كنا ندور في حلقة واحدة بغية الاستحصال على نافذة تودي بنا إلى بر الأمان، وفي الوقت ذاته ظل الجمع ينتظرون حتفهم دونما قلق أو إحاطة بالذي ينتظرهم، عيّن شاويس بعض الملاحظات ودونها متأملاً إرسالها إلى المركز حال عودة الإرسال، تأمل لحظتها الأشخاص الذين يعدّون عدتهم للرحيل دون ضجة أو صخب، تهادى من مكانه برفق، ممعناً النظر بحركتهم التي أضحت متئدة ومستقرة، تبرم بعدما دنا من الشخص الذي تطوع بالحديث، سأله عن اسمه:

- ميخود يا سيد.

- هل لك أن تخبرني عن عملك.

- أنا ابن هذه الأرض ولدت ما بين الحشائش والأدغال اصطاد لأعيش كلنا هكذا يا سيد، وأنت ما هو اسمك؟

- شاويس، أنا الدكتور شاويس، جئت مع فريق علمي وطبي لكي أنقذكم من خطر الإشعاعات.

- ما هو الإشعاع؟

توجست من كلامه، أحسست أن ثمة ما يجعلني أختنق أو أشعر بالدوار، قالها مستفهماً وكأنه غريبٌ عن هذه الأمكنة المنغمسة بالموت، لكني بادرته بعدما توسطت وجهته كيما أراه بعنايه، كدت أن أصرخ في وجهه أنه الموت أيها الأبله لكني استدرت إلى الدكتور يشاد بأن يلتزم هذا الشخص وأن يفحص خلاياه على مهل من أمره كحال أقرانه، بيد أني أشرت له من جراء ما قاله لي، أرجأت استفسار شامان الذي أتى مباغتا حول فقدان الاسترسال منوهاً له بالجلوس على كرسي الاستقبال، صرت أدور دونما حاجة لذلك، وأتمتم أنه الموت أنه الموت لكني أكتم في سري لوعته، أو أحاذر أن أظهره للعلن لعدم إخماد الروح الحية التي باتت مصاحبة لأعضاء الفريق وحسبي أن أنفاسنا كانت تفضح ما نضمره ونخفيه، بيّن الدكتور يشاد أن مفعول الإشعاع

تمكن منهم بنسب متفاوتة وفقاً لمناعتهم مشيراً بأن يحل معهم ما لحق بغيرهم في قادم الأيام وعلى المدى القريب، استعلمت عن الشخص الذي انتخبته، لم تصله أعراض ترهل جهازه العصبي بعد، سوى احتقان الوجه وتورم النُدب بصورتها المشوهة مضيفاً على تصدع رئته اليمنى، ببداهة انتبهت إلى شامان كان يلتزم النتائج المعروضة متوقفا عند تمكين السم المستحصل في الجسم، نوه يشاد بأن نترك الجمع ما دام الإرسال لم يعد للحين، مكتفياً بإعطائهم علبا من الطعام ومؤيداً لهم بالخروج من مشفى الطائرة، ترجل شاويس بهمة نحو ميخود الذي انتفخت أوداجه من شدة النُدب وضاعت ملامحة، ليضغط زر المايك مبادرا بالحديث معه:

- ستشفون عن قريب، "محاولاً أن يؤملهم"

- لا أظن ذلك انه قدرنا يا سيد.

أثار جنوني هذا المشبع بالسم والمليء بالنُدب - يهمس في سره- من أين أتى بكل هذا اليقين، ما هذه الروح التي تجعله يستبصر ما عداه؟ هل أن بيئته مكنته للحديث بهذا المنطق؟

توقف، كأنك لا تعرف ما الذي حصل، هذه بواعث الغازات المشعة التي بانت أثارها على المكان ومن يسكنه.

- ماذا تتحدث يا سيد، لا نهمّ بما تقول، كوننا مأخوذين بسخط الطوق، مسلطاً يده نحو وجهة لا أعرف كنهها بالضبط.

استوقفتني كلمة سيد الذي كان يناديني بها على الرغم من التعريف سلفاً بصفتي، كان سيره بلا هوادة وكأنه يسترق اللحظة لتواجده معنا، أو يتجنب الحديث إمعاناً لشيء يضمره، بقيت أصطف معه غير مهتمٍ لمن حولنا، وكأنه يتحدث بالإنابة عنهم ومسلمين بما يقول.

- ما الذي تقصده بالطوق يا ميخود؟

تكاسلت خطواته قليلاً، دون أن ينبس بحرف واحد ليتوقف فيما بعد محدقاً بوجهي ملياً وكأنه يستكشف ملامحي من وراء اللباس بدقة، كنت أشحذ منه استبانة الكلمة لأكاشفه عن نظرته للواقع، وكأني أنتظر عطفه ليخلصني من المرارة التي لحقتني، مانحاً لي شعلة تنجدني من هذه العتمة التي انغرستُ ومن معي بها متناسياً الحقائق العلمية التي توصلنا إليها ودوّنا مضامينها وتأثيراتها الجانبية، صرت أتابع تفاصيل وجهه جيداً قبل

أن ينطق على الرغم من تظافر النُدب لكني أحسست بصرامة واعتداد بالذي سيقوله:

- مَن أنت؟ "قالها بتجرد واستفهامٍ غريبين"

كانت صفعة السؤال تودي بي إلى الحتف، ارتججت حيال ضغط زر التنبيه المزروع في بدلة الوقاية متلقياً رسالة من شامان بالمجيء حالاً إلى الطائرة، تطاير الجمع بقلتهم مستشعراً لحظتها أنّ ثمة هاجساً مغايراً يسيّر هذه المدينة، هاجسا جدليا لا مناص من مواجهته لكن علينا أن نحد من الخطر الذي استفحل، اجتزت ميخود بمسافة معينة بيد أنه بقي معي بمحنة سؤاله الذي ظل يلازمني، مستعلماً هل أن ما قاله إنذار أو تأنيب عن المغالطات - بحسب اعتقاده- التي جئنا من أجلها، وما هو الطوق، وعمن يتحدث؟، قفزت سلم الطائرة القصير، وجدت شامان والدكتور يشاد يشيران إلى ظهور ندب صغيرة اخترقت بدلة الوقاية وبانت على الجانب الأيسر من جنبة الدكتور ماين، تسمرنا برهة حيال هذا الأمر دون أن نبدي أية إمارة نستبين من خلالها مجريات الحالة، أغلب الظن صرنا نفكر لحظتها في همٍّ واحد يستعر في دواخلنا، همّ موزع فيما بيننا بالتساوي، لعلَّ غلبته تصبو باتجاهي كوني الوحيد الذي بين أعضاء الفريق كنت الأكثر والأشد

اندفاعاً بحسب رؤيتي المستبعدة لمثل كوارث كهذه، كان فحيح أنفاسنا متواتراً ومتصلاً كأنه يعطي لوحة سريالية متشحة بالضبابية عن قلق المكان ولوعته التي صارت نتائجه تفضي إلى الفناء، كيف لنا أن نعيد صيانة أرواحنا المثبطة ونحن السائرون للعدم، انتفضت نحو شامان بمتابعة الإرسال بينما أحيط الدكتور ماين بمزيد من المتابعة في غرفة إنعاش المرضى من قبل الدكتور يشاد، تأملت لحظتها عن الشعور المبيَّت الذي بزغ في داخل الفريق وهم يزاولون عملهم متوقفاً عند علمهم بإصابة الدكتور ماين بمضار الإشعاع، وعن الجدوى التي تعنى باللباس الوقائي بعد الأن، كانت أنظاري تبحث عن ميخود ومن معه، حاولت أن أخبر الفريق بالذي سمعته لكني لم أستطع، ربما لم أكن على قدرٍ كافٍ للدخول في مماحكات كثيرة لا مجال لتصديقها، كنت أهمس بأسئلة لا حدَّ لكفايتها، هل ثمة معنى آخر للموت في هذا المكان، وما الذي يجعلنا نحيا ما دام الموت هو اليقين الذي ندركه وأن طالت بنا مسالك الدروب، شعرت ثمة تقادم في كثير من الأسئلة التي ولدت معنا وشاخت دون أن نسترعي إجابات لها، أسئلة بعمر الماء والشمس لربما نستحضرها حال انعتاقنا من الحتميات الغيبية لتصيرنا إلى

حقيقة مخيفة، الموت والحياة أيهما أحق من الآخر في هذا العالم المتواري، تخوّفت جداً من عدم رجوع الإرسال، أحسست بشامان الذي أراد أن يقول شيئاً دون أن أبدي له عناية، بدت أنفاسنا المستعرة تنوب عن واقع الأمر، لم نكن في هذا الأوان متهيئين لأية حالة طارئة بالذات حال انقطاع التواصل وظهور النُدب على وجه الدكتور ماين، عدنا نستفهم عن المنفعة التي نجنيها من اللباس الوقائي ما دامت براثن الإشعاع قد انسلت إلى أجسادنا، لنبدو محملين بسيل من الأسئلة التي استقرت في داخلنا دون أن نطلقها، ربما لا نريد مكاشفة بعضنا عن الموت الذي ينتظرنا.

صرت أتابع ملامح المكان بصورة جدية متبحراً فيما يصلني عبر المايك من أنفاس تلهج بمصيرها وأسأل نفسي مراراً: ماذا لو لم يعد الإرسال وتناقصت المؤن الصحية والغذائية وتمكن منا الإشعاع؟ كل الاحتمالات واردة، اقترحت على الفريق أن نبقى في هذا المكان كأجراء احترازي من الإسراف بالوقود، فضلاً عن أن مخاطر الإشعاع لم تصل بأكملها إلى هنا، كنت أعرف أنه سيجهز على الجميع لكن لا حول لي في أن أناقش هذا الأمر، لربما أعضاء الفريق أيضاً متيقنين من ذلك،

حاذرت في أن أستعلم عن عدد قناني الأوكسجين حتى لا يصدمني أحد بخبر يشعرني بالربكة لا أستطيع التمهل بشأنه، أو ربما لا أرتعب من الوصول إلى النهاية، أواه ما أصعب المعرفة، كنت أتمنى أن أموت بصورة مباغتة دون معاناة على أقل تقدير، أحسست بنعمة عظيمة لا نجلها نحن الواهمين من سكان الأرض بل لم تكن من ضمن مقتنياتنا بأن موعد الرحيل عن هذا العالم غير معلوم لا أحد باستطاعته أن يمسك أوانه، لكن كيف لهذا الأبله المدعو ميخود أن يكون بهذه الطمأنينة مستحضراً سيرة الموت وكأنه يفشي أسرار الملأ، وهم منصاعون له دون أن ينوه أحدهم بشيء مخالف، وما هو الطوق الذي استذكر درايته، هل ثمة من له علم أو استشرف بهذه الكارثة من أهل المدينة، تقدم شامان بتقرير كامل بحسب ما ورده من جهاز الكشف، قلبته بصورة متأنية متوقفاً عند الانشطار الذري الذي حصل في إعداد الجزيئات الفعلية المصاحبة لإنتاج الطاقة المشعة بصورة لا نستطيع السيطرة عليها، دون مقدمات تذكر أرجأت تفاصيل التقرير مستأذناً من الدكتور يشاد وصحبت معي شامان، في حينها لم يسألني عن الوجهة التي سنهم لها كوني كنت معتداً بالخروج من الطائرة وكأني خبرت منفذاً

للحياة لا أحد يعرف كنهه سواي، تبعني شامان مذعنا، لكني وحال تخطينا عتبة المدرج، بادرته بالسؤال كتصرف مني عن عدم الإشارة من قبله بالذي سيحصل:

- سنذهب إلى حيث ما كنا صباحا.

- كما تحب دكتور، هل ثمة حاجة لذلك.

كان شامان يمهد من خلال أجوبته القصيرة عن الكارثة التي حلّت بنا وهو يلوح بأنفاسه المتأججة لوعة السائرين إلى حتفهم، أمهلته بالحديث مجتزئاً كلامه ما بين جملة وأخرى بمتابعة الأفراد في ذلك الجانب مشيراً إلى معرفة التغيرات التي طرأت عليهم على الرغم من أن تبريري غير كافٍ بل لم تكن كل آرائنا التي خرجنا بها تجدي نفعاً إزاء توقيت الإرسال الذي انقطع ليذيب معه نجدة المصابين، وقد انحسر إصرارنا حال إبادة الحاجز الوقائي، لحظتها أدركنا أننا وقعنا في دائرة المحظور وأن قناع المنقذ قد تلاشى بالنسبة لنا على الأقل، كل هذا التنويهات كانت مصاحبة لنا دون أن نتمكن من إظهارها أو نستحضر نهاياتها، هروب أو احتراز من العدم الذي انغمسنا به لربما الحديث عن النهايات يحتاج إلى شجاعة وتجرد، أضحت خطواتنا متسقة بعد أن خيّم الصمت لحظتها، كنا نتناوب بلهاث يوقد الأسئلة المترامية في

الخاطر، صمت كأنه صخب واحتجاج يجول في فضاء المكان، محنة الذين لاذوا بصمتهم وهم يبصرون اعتلال الإنسان وانصهاره بعد أن أكلهم الإشعاع واجتزأ وجهتهم، ما هو التدبر في أن تسترعي فرصة مغايرة للعيش بسلام في هذه العالم المنتهك، كدت أصرخ: هل الحياة بكل تداعياتها وتراكم صورها محصلة خالصة ومجانية لانعتاقنا من الوجود، ومن الذي يتصرف بجميع مقدراتنا الإنسانية، نحن أم الواقع؟، ومن أبطال الواقع؟، أليس نحن؟، أم هم؟، أم جميعنا؟، كانت حاجتي في أن أركل سؤالاً ظل يطاردني حال ارتطامنا بهذا الجدار، لماذا يكون للموت صورٌ عدة تتضح غايته من مصادر الحياة كالهواء والماء والشمس، هل الحياة بأسرها صورة مضمرة للزوال فيما لو أزلنا من هاجسنا لمحة الشك التي تصير الممكن إلى حقيقة واعتمدنا بأننا قد خلقنا لنحيا، كان شامان يسير بمحاذاتي دون أن يتحدث، تباطأت حركته قليلاً لينبهني صوته:

- هل سننجو؟ "قالها بتوجس وخشية وهو ينظر إلى جسد متآكل"

لحظتها تضاربت جميع الرؤى في داخلي واختل توازني، شعرت أن المدى يضيق لحظة السؤال، سكت

برهة، كدت أن أقول له هل وصلك احتضاري؟ لو لا أنه واصل جملته مستدركاً همهمات تزفر بعض كلمات عابرة لم أتوقف عندها، لكني بادرته بحديث تلقائي لم أعيّن غايته بالضبط سار بمعية الأسئلة المتناوبة التي ضعت من خلالها:

- شامان ماذا لو استشرفت بقادمك، هل ستسعد؟

- لا أعرف.

- ماذا لو عرفت باستحالة خروجنا من هذا المكان، هل ستصر على تواجدك معي إمعانا لمهمتك الإنسانية والعلمية؟

لم يتوقع شامان أني سأكاشفه بهذه العفوية، كانت لحظة أن تفي غاية الآخرين بتبريرات واهية ليس بمقدورها على الإقناع أكثر إيلاما من مزاولة الصمت والتجاهل على الرغم من أن استنطاق الكلام بهذه الصورة يستدعي الكثير من الإجراءات التي تبني على أثرها كمّاً من الرؤى التي تعنى بالمتفوه، لكنها محاولة جادة للتعاطي معها وفقا لمستجدات الحدث بالذات في ظل هذا الظرف والمكان المعمد باليأس، بيد أنه تجرد من عنائه بكلمة لا أعرف لعله شعر بالورطة وهو يتتبع أجساد المصابين وتشوهاتهم:

- ربما عدم المعرفة بكثير من الأشياء أجدر من معرفتنا بها يا شامان، هل تتفق معي أننا نعرف حقيقة واحدة عن هذا العالم؟

سكت ولم يحره جوابا سوى بعض الكلمات التي لا تفي حق الإجابة، لكن الدكتور شاويس كان يعرف واقع المخاض الذي أشار له.

حال وصولنا إلى المكان تبين أن عدد الأفراد قد تضاءل بينما بقي الآخرون بقلتهم يسيرون باتجاهات مختلفة، لم يعيروا أهمية لوجودنا، في حينها عرفنا أن الإشعاع قد فتك بخلاياهم العصبية، كنت أبحث عن ميخود خلته قد امّحى أو انجرف مع هؤلاء، تماديت بالمسير بحثاً عنه دون أن أحدد وجهتي، لأجده واقفاً بترقب مصوباً عينيه نحو مسار معين من هناك وقد أخذت منه النُدب مأخذها، كان شامان يتبعني بهمة، اقتربنا منه بمسافه، أدرت صوت المايك خارجاً، كنت شرهاً للحديث معه، أعدت عليه جملتي المعهودة أو ربما أردت أن استفزه بذلك:

- ستنجون يا ميخود.

بادرني لحظتها دون أن أميز مصدر الصوت بسبب زحام النُدب:

- الم أقل لك أنه الطوق الذي زفر عذاباته بالمكان.
"وأشار بيده أيضاً نحو جهة غير معلومة"
- وما هو الطوق يا ميخود؟
تجاهلني لحظتها، بعدها مطَّ بكلماته التي خرجت بالكاد كأنه أراد تعنيفي قبل أن يجيبني، ليردفه شامان متجاوباً وطبيعة الصدمة مستفسراً عن الذي تناهى إلى مسامعه:
- وما هو الطوق؟
استدار إلينا بصورة جادة:
- إنّه الروح الحية التي تجعلنا نعيش بزهو، قدرنا تبدد بهذا العذاب.
أردفه الدكتور شاويس:
- أي عذاب تقصد؟
- الطير المبارك الذي تجلّت روحه بالتماهي مع سكينة الآلهة، الماكث بمفرده في أعلى المدينة ليبصر ما تحته ويودع نصائحه ليوصلنا لجادة الخلاص بغسل ما تقمصنا من الغواية، لا أحد منا يراه لكنه المرئي فيما بيننا من خلال الطير الذي تناغم معه وقد وهبه سر العِقْد المعروف بعِقد الحياة المدونة في لآلِئه جميع المنافذ المدعاة للطمأنينة والرخاء وكل مآثرها، إيمانا منه بأنه

السابح في هذه الفجاج الواسعة التي لا تحدها حدود ولا تستوقفها عقبة وقد تعافى طريقنا حال استكانة الطير لأحد منا مستحصلين هبات العِقْد وما يمده لنا من حصالة الآلهة على أمل أن نذيب ما يحيطنا من درن لتفتح لنا مدناً من الضوء، فحال توليه وجهة معينه لأي فرد من هذه المعمورة يبذخ أيامه بكثير من الرفاهية والسلام موزعاً هاتيك المنافذ المترعة بالحياة بحسب ما اندرج في العِقْد من مشارب مضيئة، وها نحن قد نشأنا من فطرة الطير واستجابتنا لمدياته الواسعة، لكن الذي حصل جعلنا بهذا الحال فقد غلبت علينا نوازعنا المأثومة كوننا تبعنا خطاه طمعا لاصطياده آملين أن تدوم وجهته للذي مكنه قدره مستزيداً بأكثر وقت من النعم المودعة في نظرته على أمل أن يمرر ما خُط في العِقْد لمن اكتناه وتفرد به، أزلنا من هاجسنا أن هباته لا تقتصر على أحد فهي المباحة للعامة، كانت أناتنا متضخمة، أنانية هي الحياة يا سيد أم نحن اللذين نجعلها هكذا، اقتصرت جدوى الطير المبارك على الذين حالفهم الحظ باصطياده بينما ظل الذين شح وصلهم بعدم مقدرتهم على استحصاله تائهين في هذه الفجاج، كانت الآلهة ترسل وصاياها الغاضبة مستوفين ذلك ببعض من الحالات التي

تعنى بالطبيعة وما تؤثر على ممارساتنا الحياتية لكننا لا نعي ذلك في حينها، على أثرها تفرط عقد الحياة بهجرة الطيور بعيداً وقد نضجت بعض من الآراء على أنّها اطمأنت حيث مكان الآلهة وهدوتها، لتأخذ معها كل المقدرات الطبيعية التي ننعم بها، جف النهر الذي يروي البلدة وأبناءها وحجبت الشمس وقيل أنها ارتحلت لتنضوي عند غيمة نائية، اضمحل الزرع والنبات واصبنا بالأوبئة فلا عجب من ذلك يا سيد أن نكن مسلّمين بالموت، لكن هل ذنبنا أن نبحث عن الحياة، لا أعتقد ذلك لكننا أردنا الاستحواذ عليها، الحياة للجميع كما الشمس والهواء أليس كذلك يا سيد؟

تحدث معنا دون أن يشركنا بالحديث أو ينتظر إجابة على ما قاله، وكأنه يؤنب نوايا أبناء المدينة التي استرقت وجهة الطير وفرطت بعقد الآلهة، بل لم نكن نتجرأ على انتصاف حديثه، أرجع شامان صوت المايك إلى الداخل لإخباري أن الدكتور ماين تمكن منه الإشعاع وأصبح خارجاً عن وعيه بحسب ما وصله من تومة، أدرنا خطانا نحو مركز الطائرة دون أن نعطي إمارة بذلك وكأننا هربنا من هذا المصير المعلق، كنا تائهين نسير وعلامات الشك التي تلوح لنا عن الذي يحصل، وكيف نستدل على أحقية

هذه الشعوب أن كانت أفراد جاءتنا من خارج مجرة درب التبانة، كيف نستبين على مراسهم بالعيش إزاء هذا التصريح الملتبس عن واقعهم، أين هم من لغة الإنسان الحالي وانهماكه بالبحث عن طريق صريح للخلاص، ومن الذي يقنعهم على أنها كارثة تعم العالم، أين هم من هذا العالم يا شامان:

- هؤلاء مغيبون عما نحن فيه.

هل تعلم أنه صراع من أجل البقاء كلنا ندور في هذه الفكرة بغض النظر عن الزمان والمكان أو مستحدثات المسبب، هو المآل الذي نصبو إليه، لكننا لا نعرف هل النهاية تكون على يد إنسانها، بقي شامان يصيخ السمع إزاء ترادف الأسئلة التي كنت اقترحها دون أن أنتظر أجوبة لها أو أتساءل عمن يناقشني كأني أهذي لوحدي، حال دخولنا الطائرة شاهدنا الدكتور يشاد متعباً للغاية فقد تورم جسمه وبانت مظاهر النُدب جلية من جراء الإشعاع، بينما أضحى الدكتور ماين من تعداد الموتى، كان شامان مصدوما لما سمعه من ميخود وعن الذي شاهده من فقدان أعضاء الفريق، ومما زاد من توترنا أن الإرسال لم يعد لحد هذه اللحظة، بتنا لا نعرف مصيرنا الدائر في هذه البلدة وكيف لنا أن نستفسر عن حياة الذين

تركناهم في الجهة الأخرى، لكن الذي بقي متأرجحا في تفكيرنا الكثير من حديث ميخود، في اليوم التالي شاهدنا أن الأجواء برمتها قد تعفنت لا لون في هذه البلدة سوى أن قليلاً من الأفراد يسيرون ببلاهة إلا أنّ ميخود التزم مكاناً معيناً متخذاً مداراً أخرَ دون أن يغيره، انجررت إليه لأبادره:

- ميخود، هل أحاطتك وجهة الطير؟

- لا طير مبارك في البلدة يا سيد، كلنا سنموت، سخط الآلهة الذي جرد المكان من كل شيء.

صرت أجاريه بحديثه:

- ألا تعتقد بأن الآلهة قد تخلت عنكم؟

كاد أن يلتهمني على الرغم من قواه السائبة.

- مستحيل أنه يبصرنا من أعلى المدينة.

- ولماذا يسكن في أعلى المدينة؟

- هذا ديدن الآلهة!!

- ميخود لا صحة لما تقول هذا إشعاع مضر تسرب من قاعدة هيسا التي كانت في الشمال الشرقي من بلدتكم وقد جئنا لغرض إنقاذكم.

- وهل أنقذتمونا؟

كـان يحـدثني دون أن يلتفـت إلـيّ، شـعور مسـتفز لا يحسـنه ألا مـن آمـن بـرؤاه ومـا يكنـه مـن آراء مغـايرة، ارتبكـت مـن جـراء مـا قالـه وكأنـه يكاشـفني عـن فهمنـا للحقيقة التي أتينا من أجلها، تأملت لحظتها بأننا نبحث عن الحياة ببسالة المنفيين عن أرضهم إزاء هذه المحرقة الكونية، الحياة التي أضحت ضرباً من الوهم، نحاول أن نستقصي خطاها أو نتبع أثرها كحال وجهة الطير التي لا نعرف قصديتها واستقرارها ليستدرك قائلاً:

- ما هذه الإشعاعات يا سيد ومن أتى بها إلى هنا لتفعل فعلتها؟

كنت محاصراً بالإجابة ومختنقاً في أن أعبّر عن الذي يدور، أي جملة تفي غرض هذا العدم، بل كيف أقنعه بوجهة نظري ويقيني التي أتيت من أجله.

- غـازات سـامة انطلقـت فـي الهـواء وأنتجـت هـذه الإشعاع.

- ومن الذي أنتجها ليجعل الموت مشاعاً؟

سكتُ ولم أجد جواباً في حينها، ليباغتني برد غريب "ربما نحن متشابهون يا سيد -يتحدث وكأنه في عالم مغاير عن عالمنا- فمن أجاز لنفسه أن يحتكر الحياة بوجهة الطير في بلدتنا أطلق هذه الغازات ليصيّر الحياة

لنفسه فقط ويلغي الآخر، كلنا ندور في فلك واحد"، أحسست بالدوار لحظتها، ليفاجئني وقع رسالة شامان بمعاودة الإرسال وأن طائرة الإنقاذ ستأتي بالحال، أسرعت إلى الطائرة كان تومة وشامان في غاية الفرح بينما الدكتور يشاد التهمته النُدب لكن وعيه بقي كما هو، أدرت وجهتي نحو السماء كنت أرقب مدار الطائرة التي تأتي لإنقاذنا نحن المشبعين بالموت، الغرباء عن هذا العالم، جالت الطائرة بفضاء المدينة على أمل أن تنقذ من تجده حياً، ألا أن محاولتها باءت بالفشل، كانت الأجساد المتعفنة وحدها التي تعطي صورة واضحة عن واقع المكان وعافيته المنكسرة، هبطت الطائرة على مقربة من موقع طائرتنا، كنت برفقه أعضاء الفريق ما عدا الدكتور ماين، تمرد ميخود في بادئ الأمر بالإتيان معنا لكني استدرجته لملاقاة صورة الطير المباركة التي تحلّق في هذا الفضاء حيث عقد الآلهة المزمع، انطلقت بنا طائرة المركز نحن الأحياء لمشفى المدينة لتلقي العلاج، ابتهج ميخود حال رؤيته من نافذة الطائرة طيراً يجول في الفضاء، كانت أوداجه المدببة تنزف قيحاً بنياً على الرغم من تعقيمها، لكنه تبع مسار الطير بعينيه المنتفختين ليكمله بطير آخر محركاً راسه كل حين عسى أن

تستحوذه لحظة يهم من خلالها بنظرة خالصة لينال المراد، تمعنت بميخود جيداً وهو السارح بهذا الوهم، ليصلني شامان بسؤال غير مسموع:

- دكتور هل سينجو الإنسان من مضار التلوث الناتج من الإشعاع فيما بعد؟ كنت مهموماً عن أي رؤية علمية أعينّها للإجابة، سرحت قليلاً لأجيبه:

- إذا كان الإنسان نفسه بمعزل عن احتكاره للحياة.

اللائذون بالظل

من الواضح أن هدنةِ الليل تُشعر سليمان بالهلاك، وكأنه في مخاض يداهمه كلَّ يوم. يتذكر لحظتها وفاة نادين زوجته التي أصيبت (بكوفيد -١٩)، وأبنته الكبرى ميرنا التي لحقتها. منزوياً في غرفته التي تطلُ على باحة المنزل، متأملاً في سره الموت المؤجل الذي ينتظر هذا الكون. خصوصاً عندما يتابع ازدياد الإصابات، وتهافت عدد الوفيات من جرّاء الوباء، بل والأشد وقعاً على نفسه من ذلك حلول النهار الذي يصيبه بالذعر. تَبَعاً لحالة الركود التي شلّت الأرض ومن عليها. وهو المنتظم بعمل وظيفي في دائرة بريد المدينة قرابة الثمانية عشر عاماً. فلم يؤنسه غير الصخب، والضجيج الذي يمدّه بالحياة. بيد أن الحظر الذي فُرِض عليهم؛ جعلهم ينتظرون حتفهم بصورة مؤكدة. واقعاً، إن سليمان كان يقضي جُلَّ وقته في منزلهِ ما بين حديقة المنزل، ومطالعة المجلات التي واظب على شرائها منذ صباه. مأخوذاً بالوقائع الرياضية، ونشوب المراهنات ما بين نجومها، مقترحاً لنفسه وقتاً

يقضيه، عسى أن يبدد الكثير من مسارب البؤس التي وصلته. يخرج بداية الأسبوع بأوقات محددة فرضتها الحكومة المحلية، متبضعاً لوازم البيت. كان يرى الناس وهم يدورون في دائرة ضيقة وعلامات الأجل تلوّح لهم. انتبه إلى أن ثمَّة ما يشي بتغييب الحياة بصورة واضحة، وكأنهم يلوّحون لأيامهم الأخيرة، لكن سرعان ما يستدرك الأمر بالتسلل بين أزقةِ المدينة مُصرّاً بأن لا يأتلف والحال الذي أحاطه، آملاً أن يجد أطفالاً يلهون مع بعضهم؛ ليستمع لصيحاتهم مثلما كان في السابق. طرقٌ موحشةٌ، وبليدة، وأبواب موصدة، وصفاء في الطقس، يسرح بأنظاره طويلاً، وفي فكره مجرة من الأسئلة التي تدور عن اللعنة التي تصيب إنسان هذا العالم؛ ليتهادى إلى منزلهِ منشغلاً بأدق التفاصيل وأكثرها هامشية. على الرغم من ذلك كله كان اليوم يمضي متثاقلاً لا يخلو من الضجر، منتزعاً من مخيلته ذلك الهاجس الذي تلاقفته الألسن من الأصدقاء والمقرّبين، محاولاً أن يستقرَّ بالمطالعة، ليعتزل هذا العالم الكئيب، وما يصاحبه من اضطرابات محبطة، مبتكراً عالماً وادعاً علّه يزيل الكثير من الرتابة والملل.

عبثاً، ومن دون سابق إنذار توجّه سليمان إلى قراءة النصوص القصصية المتواجدة في الصفحات الثقافية لكثير من الصحف والمجلات المدّخرة لدية. بعد أن انسحب من مزاولة نهمه وولعه برغبته الأولى، منشدّاً إلى متابعة بعض من المسلسلات الكلاسيكية المرفقة في الأنترنيت. التي شكّلت بالنسبة لديه أثراً طيباً في حينها لا تغفله مستجدات الواقع المأزوم، لاعناً أوانه، يمضي إلى الجحيم. كان يتوقف عند ما تركه الماضي مستعيداً ذكرياته بفترات متعاقبة، لكن سرعان ما يداهمه موته المرتقب ليقاومه بالإصرار والتفاني. تاركاً ما يسوّره من لوعة وتوجس، مزيداً على رؤيته بأن هناك منفذاً للخلاص ينجو عبره الإنسان، ليعاود الحياة من خلاله، يفتح النوافذ على أمل أن تتناهى إلى مسامعه زقزقات العصافير. يجلس على كرسيه الخشبي، هامّاً بقراءة ما يتراءى له من أخبارٍ في الصحف، معيناً القصص ليعيش حكاياها. وبينما كان يقرأ بتريث طرقت ذهنه فكرة تدوين هذه النصوص في كراس ممهور بزمن كتابتها من قبل المؤلف، وزمن أعادة أرشفتها من قبله، مشيراً إلى ماهية النص بعناية، مذيلاً هامشها عن الغاية التي خبرت هذا التوثيق، مانحاً شكلاً مغايراً للوقت المتراكم، علّهُ يكون

شيئاً مثمراً بالنسبة له. كان يمارس فعل التدوين وهو يتطلع إلى تغيير مكان ونمط جلوسه. هذا المشهد المتكرر الذي يعيشه يجعله مبتهجاً بهياً، وكأنه قد أنجز عملاً مثالياً متناسياً محنة الخلق. وفي نيته تدوير أيامه القادمة بصورة تشعره بوجوده، ساعياً إلى إزاحة ما يلفظه الوباء وتهتاج به وسائل الإعلام، مجتهداً بالإحاطة بيومه بكل ما هو نافع ومجدي من دون سأم يذكر. من الملفت للنظر أن سليمان عندما يفتتن بنص ويبدأ بتثبيت محتواه تتلّبسه شخصية البطل بكل مآثرها، لينطلق في مساحة حية تمكّنه من الغور في مكنون النص، ومزاغله مأخوذاً بطبيعة الحالة التي ألهمته هذا التجسيد. لكن سرعان ما يمهل نفسه قسطاً من الراحة معلناً الانطفاء، ليعاود في يوم آخر -وبنص مختلف- منتشياً بعمله الذي يتمه، يرى ما يراه من الدراما التليفزيونية، ليكمل فرضه، منسحباً إلى فراشه وينام نومته الهانئة، وهكذا دواليك. وفي ليلة مترعة بالصمت، وصخب الشخوص القصصية التي يتبناها، وبينما كان منهمكاً في التأشير على بعض من النصوص التي أعدها؛ توقف إزاء نص قصصي بصورة عفوية على الرغم من محاولاته الجادة بتمويه الأفكار الشاحبة التي تدعو إلى العدم. لكنه انتبه إلى أن ثمة ما يجعله مغدقاً

بالتفحص على مهل من أمره. ذلك ان عتبته بلا عنوان معلق في هامته قصة قصيرة. عدّل من جلسته وراح يعاين القصة بمظهرها العام قبل القراءة ظاناً من أن ملامح النص قد بهتت. لاحظ جيداً أن الكلمات واضحة المعالم مع اصفرار أرضيتها لتقادم الزمن، ازداد اهتمامه لقراءتها، تدور الفكرة عن رجل يبتهج بخوف الآخرين ورعبهم، يزاول غايته منتصف الليل ليخطَّ على واجهات البيوت جملاً تتوعد أبناء مدينته بقرب أجلهم. كان يحتفي بهذا الطقس عندما يرى ارتباكاتهم وحكاياهم تدور بفكرة الموت، لينذرهم بكثير من مشارب الهلع ومدركاته. فيقوم -مثلاً- بتيبيس الزرع الموزع في الأماكن العامة، وذلك بإضافة مواد خلوية سامه ليتفاقم عندهم اليقين بذلك، ربما يسبب له الآخر شعوراً عدوانياً شائكاً لا ينفك من ملاحقته. الغريب في الأمر بعد كل جولة يمسح بها أزقة المدينة يرجع إلى بيته مستريحاً لكنه يصاب بحالة من التسمّر والركود، مترقباً هاجس أبناء المدينة، وردود فعلهم، ليغبط نفسه بالذي يسمعه ويراه؛ فيحرص مرة أخرى أن يستيقظ على فكرة مغايرة تمدّهم بالتيه والرهبة. تابع سليمان القراءة بحذر شديد، مستدركاً الكثير من التفاصيل التي سقطت سهواً، ليتوقف عندها

متناسياً الهاجس المهول الممسك بالنص، سارحاً بالقلق الذي بعثه ذلك الرجل، فيتأمل لحظتها بالرجع الذي صاحب أبناء المدينة، مسترسلاً بحالة التوجس التي أثارت نزعة الترقب في ذهنه. كان شعوره متواتراً بالذات، عندما انتهت القصة بموت البطل بصورة مفاجئة. بينما بقي أبناء المدينة على قيد هذه الأرض لكنهم بالخشية نفسها التي رافقتهم. من دون أن يعرفوا السر الذي تقمصهم سوى تلك الجمل المتوعدة التي يظهرها الليل. بل لم يكن بمقدورهم أن يتنازلوا عن الخوف والمرارة التي اكتسحتهم حتى بعد امّحاء حلقات الرعب المنتهية برحيل بطلها. ربما لأن سمات الأثر التي تُمارس بالخفاء لها وقعها الكبير. منذ الوهلة الأولى شعر سليمان بانحسار السبل التي تصلهم بالبهجة تبعاً لزعزعة إيمانهم بالقادم الذي بات صورة مدلهمة، مبيناً استشرافهم بوعدهم، تراجع عن كرسيه لشعوره بالدوار، لكنه لم يذيّل تحت النص بعض الإشارات التي توحي بتوثيقه كحالة لا إرادية لذلك الوله الذي استحوذه وأخذ منه الكثير. استقام من كرسيه وأخذ يطالع الصمت من وراء النافذة. خيّل له وكأنه يستمع إلى صرخات العالم واستنجاداتهم. وكأنهم رهائن يبحثون عن منقذ في هذه

الفجاج الواسعة. أحسَّ بأن هناك أصواتاً متداخلة فيما بينها ترتفع لتضمحل بالحال؛ فردّ ملامحه بصورة تؤهله للتمعن. لم يصله سوى السكون، أغلق النافذة وراح يسقي أوراد الزينة ليتهادى ببطء إلى سريره.

حلَّ الصباح الأخرس، كانت بوادر الحكاية ما زالت تفور في ذهن سليمان على الرغم من محاولاته الجادة لمخاتلة وتمويه تداعياتها. في حينها قرر أن يخرج من بيته أثناء الفترة المسموح بها دونما حاجة لذلك. ربما لإزالة الكمد الذي استحصله من خلال قراءته للنص. كانت أعين الناس ترقب الآتي من وراء الكمامة. وكأنهم ينتظرون قضاءهم بصورة قطعية. هذا ما زاد من حنقه ممعناً النظر بالماحول بتؤدة محكمة. صار يتساءل بقلق وهو يطالع تعاقب المارّة بخطاهم غير المنتظمة؛ ما الذي يساورهم إزاء هذه الغربة التي تشيدهم؟ ثمة ما يجعله يتأملهم، وكأنهم أسئلة مرتبكة. تهادى من مكانه ليصل إلى مقربة من بيته. توقف قليلاً تحت ظل شجرة اليوكالبتوز التي تغطي جزءاً لا بأس به من محل سكناه. أطال ببصره إليها. كان حثيثها ساكناً جداً. مهملٌ هو الوقت يا سليمان -يحدّث نفسه- تشاور حدسك وكأن النجاة قد أطالتك من دون غيرك. أدار وجهته نحو منزله

مبادراً بالدخول، وفي سرّه أفكار متضاربة عن القادم المتواري. سار برويـة نحو حجرته، وأخذ يطالع رزم الصحف التي يدّون محتواها القصصي. كانت الصحيفة التي أشعلت غيظهُ مستلقية على الطاولة. أحس بأن حالة من الهلع قد اجتاحته من دون أن يعرف السبب. لم يكن باستطاعته أن يعدل عن نظرته الجادة؛ خلع ملابسه بتوتر، هاماً بتعقيمها وعرضها للشمس، متمتماً بصوت خفيض: ما هي سوى قصة رديئة، لن أدونها أبداً. انشغل بمستلزمات البيت فضلاً عن تحضير وجبة الطعام. كان يشعر بحميمية اتجاه فقد زوجته وابنته، لتتراءى له بعضٌ من ملامحهم، وشيءٌ من همساتهم، ماسحاً بأنظاره المكان، متماهياً والأثر الذي يندهه. لكن سرعان ما يندثر حيال الواقع الذي يقابله، ليتحاشى أن تأخذه ذاكرته بعيداً، مستعيضاً عنها بما يشغله من مراسه اليومي. كالمعتاد أكمل ما عليه، وراح منكباً بعمله. لكنه كان متردداً بعض الشيء، خشية أن تصادفه فكرة مماثلة لسابقتها. كان من الصعب أن يستقي الحياة في ظل هذه الأجواء المرتبكة والملبّدة، فما بلغه من مصاب الـمّ بعائلته موصولاً بمحنه الوباء الذي جعل اللقاء مع الآخرين معدوماً إلا في حالات نادرة. لذا طوّع نفسه أن

يُنحّي هذه الرؤى التي حوصر بها من دون أن تستمكن منه. فتح النافذة بصورة عفوية، طارداً ذلك الوهم. أعاد لنفسه ثقة لا بأس بها. تنقّل في مواقع عدة داخل المنزل، عازماً أن يفي غرضه بما كان مبيّتاً في داخله من طرح مختلف. جال بين حجرة وأخرى. وكأنه درويش تجلى برفعة مقصده. عيّن لها مكاناً مغايراً عن سابقه. أحكم طاولته جيداً. أفرد الصحف غير المقروءة، بينما ظلت الصحيفة التي أصابته بالحنق بمعزل عن الأخريات. استكنَّ عندها بعض الشيء، ليتلقفها بالحال، وفي نيّته قلب الفكرة، وتسجيلها وفقاً لمتبنياته. التقط قلمه، وراح يناور الخوف والرعب الذي رافقه. تصرّف بوصفه بطلاً مناوئاً لطبيعة الطرح السابق، تبعاً لما يكنّه من قصد. كان يدرك تماماً أنّه ساع إلى أن يبذر الطمأنينة في نفوس أبناء المدينة. باشر بتدوين النص، مجترحاً أسمه كدالة تقود الحدث، مستبدلاً هالة الهلع بمزيد من الأمل والسلام. أذاب من مخيلته ومن عموم النص كل المفردات التي تدعو إلى الفناء، ليعيد ترميمه بصورة تنبض بالحياة بكل مفاتنها وسحرها، أو ربما نكاية بالمخاض الذي يعاني منه، تاركاً النهاية مشرعة الأبواب، إمعانا لحالة تقيّده إزاء هذه المفردة. غير أنّه أطاح بالبؤس الذي مرره النص،

ليبث به روحاً صلدة لها مقدرتها على تحجيم العتمة. كان ينظر إلى الآخر بوصفه أناه، أو أنا الذين أكلتهم خلسة الصوت الذي يسعد ويهنأ بالموت. أكمل ما عليه، مقترحا هامشا له (سننجو أيها العالم). استعان بالصمت الذي أخذه إلى فسحة المنزل. كان ما يزال منتصراً بدور الباسل المغامر الساعي إلى التغير بتنقية قلوب أبناء المدينة من المخاوف. فتح باب منزله بهوادة ورفق. تقدم بضع خطوات باتجاهات مختلفة وهو ينظر ويستمع بحدسه المتقد إلى ما تضمره وتخفيه تلك البيوت من رهبة. تراجع بالحال إلى باحة المنزل. ثمة قنينة من الطلاء الأبيض في زاوية مندسة من حديقة المنزل؛ أخذها وباشر بالكتابة على واجهات البيوت: "ستنجون يا أولاد الأرض، ستنعمون بالحياة" امتدت به الطرقات الملتوية بدربة واجتهاد إلى أن تراءت له ارتسامات النهار، ليسرع بعدوه إلى منزله. جلس على كرسيه المعتاد محدقاً من خلال النافذة، وكأنه ينتظر شيئاً عظيماً. نضج النهار وسمع وقع أقدام المارة، على الرغم من قلّتها لكنها كانت أكثر اتزانا. هكذا شعر سليمان عندما ترجّل مع عامة الناس وكله شغف بأن يستحضر عوالمهم الداخلية. بينما تورّم بعضهم وأصيب بالحيرة ممن ظلت واجهة بيته

خالية من أي حياة تذكر. كانت نظراتهم اليائسة تنذر سليمان وكأنه المتحكم بمصائرهم من دون أن يعلموا بذلك. تسمّر لحظتها، وصار يواجه شعوراً بالذنب بأن يواصل مشواره على أتمّ صورة، طمعاً بإبادة حالة الفزع التي لحقت بالأخرين. رجع إلى منزلة وفي ذهنه دهر من الملامح المنكسرة التي شاهدها من وراء الكمامة، وسيل من الجمل الحانية التي حملتها الريح إليه. خلع الظاهر من ملابسه وراح يدور على مهل من أمره. سحب كرسيه المتحرك وجلس في حجرته. كانت النافذة موصدة في حينها. اجتاحته الوحدة أو حالة من التهشيم من دون أن يعرف السبب. استقام من مكانه متمادياً بفتحها. تساءل عن الغاية التي تجعل الإنسان يستشرف بأمر معين ويسلّم له: هل هو تأسيس المكان وطبيعته التي جُبل عليها وأوهمته بكثير من الحتميات؟ أم أن مجريات الحياة هي التي تسهم بتربيته على ذلك؟ أو ربما الاتكاء على سلسلة من التكهنات المستلقية في الأثر توصله إلى محطة لا يستطيع مغادرتها؟ كان سليمان يلوذ بالصمت وهو يطالع النص الذي أعاد صياغته على أنّه السند القويم الذي باستطاعته يستبدل النوايا المستبدة بمآلها. قام من كرسيه ممهداً لمشواره الليلي. أصبح مهموماً بالذين توعدوا

أجلهم أو ربما أحسَّ بالذنب من جراء هذه الفعلة. ما بين هذا وذك أدرك مدى المسؤولية التي تواجهه. ثمة ما كان يراوده عن دوره كمخلّص حيال الذي وصله من أبناء المدينة.

جاهد سليمان كثيراً بأن يقلل من القدر الذي لازمه. كان ينظر إلى الآخر الذي لم يكن بمقدوره إسعافه بكلمة تعيد له ثباته في هذه الحرب النفسية نظرة العطف المشبوبة بالترقب. يتابعهم وكأنهم استفهامات معلقة تمشي على قدم وساق. أوكل لنفسه موعداً مع الليل ليبذر الطمأنينة، ويواصل كتابته على واجهات البيوت، ساعياً في أن يرى عامة الناس بمهجٍ مترعة بالرخاء، متفقداً الجميع وهم يطردون نواياهم المزدحمة بالموت، ليتناوشوا بألسنتهم جملاً تمكنهم من حيازة القادم بروح ثرية منعمة. تكللت المدينة بفرح غامر، أضحت مآثره بصورة جلية. من الطبيعي أن سليمان لم يك مهتماً، أو ربما استبعد من مخيلته كتابة تلك العبارات على واجهة بيته بوصفة القطب الموقن بتفرده، الذي سيحرر العامة من الأغلال التي أسرتهم، أو التي تلزمهم في المستقبل. أصبح الجميع ينظرون إليه على أنّه رمز الشؤم الذي يستحضر الموت من دون غيره. بطريقة، أو بأخرى حاول

أن يهش كلماتهم التي كانت تصل نحوه لكنه فشل في ذلك. أحسّ ثمة شيءٌ ما يمنعه عن التواصل مع الأخرين، وكأنه أحد المنغمسين بالموت والمبشرين به. انفجر لحظتها مشيعاً عن السبب الذي دعاه للكتابة، لكنهم اتهموه بالكذب والتجني. أخذ سليمان يشاور نفسه بفطنة ودراية وفي كنهه سفر من الأسئلة المتأججة: لماذا آمنوا بكلماتي التي أطلقتها دونما أثر يستدل عليّ؟ هل ثمة يقين لا رجعة فيه إزاء المصائر التي يصيّرها الغيب، ويحكم أكرات نوافذها؟ بينما اتهمت بالتدليس عندما أعلنت الحقيقة أمام الملأ! كيف لنا أن نبصر الدليل أمام هذا العالم الضبابي المعبأ بالوهم والحذر؟ من أين أتوا بهذا الإيمان اللامتناهي بأن تكون الحقيقة هي كلمات تعلّق خلسة على واجهات البيوت؟ وتمارس جمهرتها بالخفاء؟ أو توضع بين دفتي كتاب توثّق لخطوات لم نطأها بعد؟ احتدم في رأسه كمٌّ من التساؤلات الملتهبة، وراح ينظر إلى النص القديم الذي قرأه في الصحيفة بصورة واثقة وحدّية، متفحصا فكرته بتريث وأناة، سارحاً بالذي يجول في خلده عن محنة الخلق في حينها، ونظرتهم لبطل القصة الذي لم تصبه عبارات السأم والهلع. توقف سليمان كثيراً جراء السابقين من هذا

العالم، باحثاً عن الأدلة التي يتكئون عليها حال احتكامهم للصواب، كيف لهم أن يدركوا لعبة الحياة بكل مخاضاتها؟ ولماذا لم يخطّ الرجل على واجهة بيته تلك العبارات السفلية التي تدعو إلى الاندثار، منعاً للشك أو المغالطة على أقل تقدير؟ هل نسي ذلك فعلاً وأخذته الجلبة بهوسه وعقدته؟ أم أيقن طبيعة الآخر وانكساره بوصفه كلمة تمرر له من الخلف؟ ترجّل سليمان من مكانه بتثاقل، ليفتح آخر نافذة في بيته ساهماً إلى العالم على أنّه مجرد أحكام وسنن قابلة للدحض أو الإشادة.

المؤلف في سطور

ميثم الخزرجي
الاسم: ميثم محمدعلي كاظم الخزرجي
الاسم الأدبي: ميثم الخزرجي
التولد: العراق -النجف- ١٩٨٧/٢/١٨
التحصيل الدراسي: ماجستير علوم الحاسبات تخصص ذكاء اصطناعي
رقم الموبايل: ٠٠٩٦٤٧٨٠٢٥٤٣٠٩٩
الإيميل: mytham.ma٨٧@yahoo.com

- عضو الاتحاد العام للأدباء والكُتاب في العراق.
- عضو اتحاد الأدباء والكتاب فرع النجف.
- أمين الشؤون الثقافية السابق في إدارة نادي السرد في اتحاد الأدباء والكتاب فرع النجف.

المؤلفات والمشاركات الأدبية:

- بريد الآلهة: قصص قصيرة، الفائزة في مسابقة الشباب عن اتحاد الأدباء والكتاب في العراق لعام

٢٠١٩، صدرت عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقي.

- النزوح نحو الممكن: قصص قصيرة، منشورات اتحاد الأدباء فرع النجف الشرف، صادر عن دار أحمد المالكي، ٢٠٢٠م.

- مُتنزَّهُ الغائبين: قصص قصيرة،صادر عن دار ومكتبة سامراء للنشر والتوزيع، ٢٠٢٤م.

- مجموعة قصصية جاهزة للطبع.

- مقالات في المعرفة والثقافة، كتاب جاهز للطبع.

المسابقات والمشاركات:

- شارك في عدة ملتقيات للسرد من أهمها ملتقى الشباب العربي المقام في دولة الكويت من خلال ترشيحه لتمثيل العراق بالقصة القصيرة عام ٢٠١٧ بالإضافة إلى مهرجانات للسرد خارج المحافظة.

- (تحولات النظام الثقافي في الرواية العراقية المعاصرة) ورقة بحثية شارك بها في مهرجان بين ثقافتين الذي أقيم في السعودية عام ٢٠٢٤.

- فاز في مسابقة الشباب الصادرة عن اتحاد الأدباء والكتاب العراقي عن مجموعته القصصية بريد الآلهة لعام ٢٠١٩.

- كـرم فـي مهرجـان عيـون للإبـداع العربـي دورة الموسـيقار العـالمي نصـير شـمه مـن ضـمن الشخصـيات الفاعلة في الثقافة والأدب.

- فـاز فـي مسـابقة دار سـطور العراقيـة للقصـة القصـيرة عن قصته (غصة كونية).

- فاز في مسابقة جريدة دليل النجف للقصة القصيرة عن قصته (صراخ متئد).

- فاز في مسابقة دار تشرين المصرية عن قصته (سادن المقبرة).

- فاز في مسابقة دار مها المصرية عن قصته (الغرفة).

- فاز في مسابقة دار السكرية المصرية عن قصة (ما لا يدركه الحلم).

- أذيـع نصـه (الغرفـة) فـي البرنـامج العربـي "قصـص مسموعة من السودان والعالم العربي."

- عين الجحيم: النص الفائز في مسابقة قصص على الهـواء التابعـة لمجلـة العربـي الكويتيـة بالتعـاون مـع إذاعـة مونت كارلو الفرنسية العدد أبريل لسنة ٢٠١٩.

- محنة الرائي: النص الفائز بالمرتبة الأولى عربياً في مسابقة قصص على الهواء التابعة لمجلة العربي الكويتية

بالتعاون مع إذاعة مونت كارلو الفرنسية العدد أبريل لسنة ٢٠٢٢.

- القائمة القصيرة في جائزة نيلسون مانديلا للآداب عن مجموعته القصصية (محنة الرائي).

- تناولوا نتاجه القصصي في الدراسات الأكاديمية داخل العراق وخارجه.

- ترجمت بعض من أعماله إلى اللغة الفرنسية

الاهتمامات:

لديه اهتمامات كبيرة في الاطلاع على المناهج النقدية ونظريات المعرفة والأسطورة والميثولوجيا، وكتابة القصة القصيرة وكتابة المقالة الأدبية والاجتماعية والسياسية وقد نشر نتاجه الأدبي في أكثر من مجلة وصحيفة عراقية وعربية مقروءة مثل (مجلة الأقلام التابعة لوزارة الثقافة العراقية -مجلة الأديب العراقي التابعة لاتحاد الأدباء والكتاب العراقي- مجلة آفاق أدبية التابعة لدار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية - مجلة العربي الكويتية - المجلة العربية السعودية - مجلة الإذاعة والتلفزيون المصرية - مجلة البيان الكويتية - مجلة الرقيم العراقية - مجلة السنبلة العراقية - مجلة الشارقة الإماراتية - مجلة أفكار الأردنية - مجلة الفجيرة

الإماراتية - مجلة أدب ونقد المصرية - المجلة الليبية - مجلة البحرين الثقافية- مجلة الفيصل السعودية- صحيفة الصباح - صحيفة الزمان - صحيفة المدى - صحيفة العالم - صحيفة طريق الشعب - صحيفة المواطن - صحيفة بلادي - صحيفة المستشار - صحيفة العراق اليوم - صحيفة النهار - صحيفة الشرق- جريدة القصة المصرية) بالإضافة إلى مراكز ثقافية عديدة.

المحتويات

الإهداء..... ٥

الدائرة القصِية ٧

الماثلُ في الفراغ..... ٤٧

حجرة المرايا ٧٧

رهان القادم..... ١١١

مُتنزَّهُ الغائبين..... ١٥٣

وجهة الطير..... ١٧١

اللائذون بالظل..... ٢٠٥

المؤلف في سطور ٢١٩

المحتويات..... ٢٢٥